مكتبة الأسرة ٢٠٠٧

سلسلة الأدب

ذاكرة التيه

رواية

عزة رشاد

t.me/qurssan

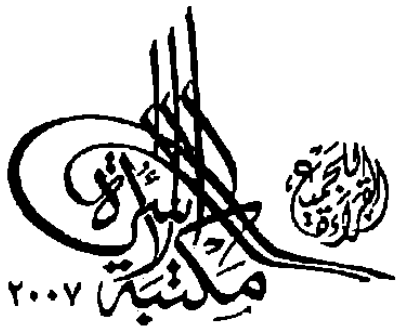

برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د . مدحت منولى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
على أبو الخير
ماجدة عبد العليم
صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

t.me/qurssan

ذاكرة التيه

رواية

عزة رشار

t.me/qurssan

ذاكرة التيه

رشاد ، عزة .
ذاكرة التيه: رواية/ عزة رشاد . ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ .
١٩٦ ص ؛ ٢٠ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٧- سلسلة الأدب).
تدمك: ٠ - ٩٣٤ - ٤١٩ -٩٧٧.
١- القصص العربية .
أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦٤ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977-419-934-0

ديوى ٨١٣

t.me/qurssan

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة.**

لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار

t.me/qurssan

التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثّل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحدٍ وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

t.me/qurssan

تقديم

منذ السطور الأولى لرواية «ذاكرة التيه»، يجد القارئ نفسه متحدًا تمامًا مع الشخوص والأحداث والأمكنة. فالكاتبة بما تملكه من لغة سهلة، وقدرة فائقة على الحكى، استطاعت أن تخرج من سطور ورقات الرواية لتدخل إلى قلب القارئ مباشرة.

تحكى الرواية عن طفلة، مستعرضة مراحل حياتها المختلفة بحثًا عن السلام النفسى، تطول التفاصيل، وتتعقد، لكنها لا تفقد الخيط الأساسى، الذى يربطها ببعضها. لقد كان العنوان - ذاكرة التيه - موفقًا للغاية، فالذاكرة هى البطل الحقيقى لهذه الرواية، حيث تتشعب الدروب، وتُستَحْضَرُ الحكايا، حكايا الفقد والسعادة، حكايا الذوب والانصهار، حكايا الحب واليتم، لتقدم هذا النسيج الحياتى غير المكرر لامرأة أكثر ما يؤرقها هو ذاكرتها القوية، ووجدانها الشفيف.

أصدرت عزة رشاد، بعد هذه الرواية مجموعتها القصصية المميزة [أحب نورا، أكره نورهان] وقد ساعدتها مهنتها كطبيبة على اجتلاء قشور النفس الإنسانية، وصولا إلى أعماق وبؤرة الروح.

ومكتبة الأسرة تقدم ضمن إصداراتها هذا العام هذه الرواية عن طبعتها الأولى الصادرة عام ٢٠٠٣.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

"لا أحد يرجع إلى نهار غادره"

نص مصري قديم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عزم "يثيسوس" ابن "ايجيوس" ملك أثينا على أن يذهـــب إلى كريت ويذبح المارد ليقضى على وصمة العار التي ظلت عالقة بمدينته لسنوات طويلة.

من أساطير الإغريق

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بابتسامته التي تعرفينها جيداً ستجدينه أمامك بعد قليل.. ابتسامة شاحبة لن تتمكن من مداراة قلقه وتوتره. تقابلينها بابتسامتك التي تعرفينها جيداً، تعرفين كيف ترتسم فوق وجهك ببطء، رصينة واثقة، تخفي كل بؤسك ولوعتك.

وإذا ما توغلت عيناه في نظرتك وحاول الاقتراب من خزانة أسرارك فسألك: ماذا حدث؟ تجيبينه بنفس الهدوء الذي يشملك عادة في تلك اللحظة وتحدثينه عن الضغوط التي تتزايد يوماً بعد يوم، حتى يقتنع تماماً بأن الأمر في أسوأ أحواله لا يعدو كونه ضربة حظ عاثرة.

يتركك لنفسك بعد أن يتبدد قلقه، فنفسه البسيطة المحبة مهيأة لقبول كلامك ومبرراتك، لتجاهل كل مداراتك. أما نفسك الملتاعة فكيف تسعين لإقناعها أن الضغوط المزمنة جداً والعادية جداً هي التي جعلتك تنقلبين على هذا النحو؟

عدة دقائق.. وقبلها.. عينك كانت في عينه، فمك في فمه، قلبك في قلبه، وكان جواده يعلو، ويعلو الصهيل داخلك، يعلو، تعلين ثم تنقلبين من فوق صهوة جوادك فتجدين نفسك أمام جبل من الثلج. العرق يغطي جسمك والجليد جمد روحك وخشب أحاسيسك.

t.me/qurssan

صـــدى حـــيرة رجلك الذي تحبينه ويحبك يظل يداهم رأسك: مـــاذا حـــدث في تلك اللحظة؟ اللحظة التي تراوغك في كل مرة تظنيـــن نفســـك فيها منتصرة على نفسك وتستعدين للانحناء أمام التصـــفيق المجهـــول كـــي ينســـدل عليها الستار نهائياً، فتجدينها تنتصب أمامك فجأة، تتحداك أن تنسيها.

تغرزين وجهك في صحيفة قديمة أو في كتاب، برغم الصدى الـــذي يحفر ثقوباً بروحك.. يحيلك نخالة إنسان ينغلق عليها كيانك المنضـــبط في كل شيء. فأمثالك لا يقعون ضحايا الانهيار التام.. الانهيار المكشوف، فاللجام دائماً في اليد والصحيفة القديمة في اليد الأخرى.

مـــاذا حـــدث؟ وكيف تفرين من المرفأ الذي يضم حلمك كأنه كـــابوس؟ كيف تتقلبين فجأة دونما ظلال معتمة لأشباح تترصدك فـــي الظلام، أو عيون صفراء تلاحقك بنظراتها الحاسدة؟ تستكثر عليك السعادة التي تعيشينها. سعادتك التي تصبح مغدورة فقط في تلك اللحظة، حين يغشاك السعور القاتم، بأنك امرأة غير مكتملة.

وإذا مـــا تركت الصحيفة جانباً وإذا ما أرخيتِ اللجام قليلاً.. فأين تجدين نفسك؟

* * *

t.me/qurssan

فقدت البحر الذي كان لي..

أفلتُ يدي من يد أمي، أهرول لأتمرغ فوق الرمال الساكنة لتبتلعني ثم تلفظني برفق، يمنحني الأفق اللامتناهي وفرة من الأمان تستعصي على الفهم لمن لا يرى في البحر سوى الأمواج الهادرة. في أذني وشوشة الريح، تهدهد روحي، أستمر في العدو وراء طائرتي الورقية فينشلح ثوبي القصير المنفوش، تضحك أمي ولا ينثني عزمي عن متابعة الطيران في مركز دائرة يشكل سرب النوارس البيضاء محيطها البهي.

أستدير فأرى أنني ابتعدت عنهم كثيراً، ارى كلاً من أخويَ صغيراً مثل "عقلة الإصبع" بطل الحكايات التي كانوا يحكونها لنا لننام، أنفخ الهواء لأطيرهما بعيداً، يقع أحدهما فتنكفئ أمي عليه ويستمر أبي في السير يحاول اللحاق بي.

أخطو نحو الماء بعد أن أقف على حافته فترة من التردد.. أمد قدميّ حتى يغمر الماء ساقيّ، أتركه يطرطشني رويداً، رويداً حتى أعتاد برودته، ثم أندفع لألقي بنفسي فيه.. أبتعد، أغطس لأطول فترة ممكنة تحت الماء حابسة أنفاسي ومغمضة عينيّ، عند لحظة معينة سأشعر بنفسي أبتعد مجذوبة إلى أعماق البحر. سيضحك مني أبي حين أخبره أني رأيت سمكة بطول قطار مثل التي حكى جدي أنها تشم رائحة الدم ثم تنقض لتفتك برجال البحر. سخرية أبي لن تزعزع يقيني، وسمكة القرش لن تردعني، سأعاود الغطس بعد أن أبقى ممددة بين السماء والماء للحظة قصيرة، كل اقتراب من الموت، كل نجاة، تحمل لي ميلاداً جديداً.

t.me/qurssan

يغمرنـــي الماء فيزعق عليّ أبي يناديني لأخرج، يخشى أن يبقى البرد ملتحماً بعظامي فيتأثر نموي.

كنـــت فـــي السادسة من عمري عندما فقدت البحر الذي كان لي..

لم يتبق بذاكرتي من تلك الليلة سوى رائحة الحريق. لخبرتني أمـــي أنـــنا لم نهجّر إلا بعد توقف القصف بوقت طويل، دون أن تولى اهتماماً لتلك الرائحة بذاكرتي.

حملت الشاحنة أغراضنا تحت غطاء الليل وتحركت بخطوات ثقيلة مترجرجة.

– لم يمهلنا الوقت لنفك أرجوحتك المعقودة جدائلها في سقف الغـــرفة، كمـــا لم نسعفنا الشقة الصغيرة الجديدة لنعلق لك أخرى. تقول أمي وهي تحشر ملابسنا داخل الدولاب الضيق.

تـــوارب الـــنافذة فـــي الصبح فيتسلل نحونا شعاع ضئيل من ضوء بلا أفق، كانت أمي حريصة أن تجعلنا جزءً من سكان البلدة علـــى خـــلاف غـــيرنا من المهجّرين احتفظوا بعاداتهم في السهر والغناء للبحر، ولم يتخلوا عن ثيابهم البحرية، فظلوا غرباء.

كـــنا محظوظيـــن عـــندما استأجر لنا عمي الكبير تلك الشقة بالـــبلدة الواقعـــة على أحد أطراف قرية جدي.. "ميت لوزة" التي كانت موطناً أصيلاً للقطن.

– جـــدك كان الملك الذي قصمت عرشه دودة صغيرة. تقول أمي بلحن حزين ثم تستطرد:

t.me/qurssan

قــبل موته كان يأكل قطنه. يقول: أنا الأولى به من الدود. حــتى أصابه الجنون. وتحكي عن الثعبان الذهبي الذي خلعته من معصمها في محاولة لإنقاذ جدي، لم تكن مجدية.

"مات جدي محاصراً بالديون، ومحسوراً على جنته البيضاء."

تؤكــد علــيّ وهــي تعقد بشريط أزرق طويل شعري "ذيل الحصــان" أن أتجنــب الشــوارع الخالــية من المارة والأخرى المظلمة، ففي الحي الذي ينام مبكراً.. "لا حرية إلا للكلاب الضالة و عفاريت الظلام".

غالباً ما أنسى وصاياها أو أتناساها بنوع من العناد كي أختبر شــجاعتي. أتقدم بخطوات مسرعة لأتجاوز البيوت القليلة العالية، بواجهاتهــا العتــيقة وخلفــياتها التي تميزها سلالم الخدم، الرفيعة الملــتوية كالأفاعــي، التي كانت للشيء الوحيد المكشوف لنا من حــياة ساكنيها، كما لم تسلم من الحكايا عن الخادمات الصغيرات اللاتي تأتي طيور الليل لتحملهن إلى حيث لا يدري أحد، حيث لا يعــدن أبداً. أنحني مع الطريق بين صفوف البيوت الواطئة القديمة بــروائح مطابخهــا وحماماتهــا ورطوبتها، تؤنسني حزم البصل والثوم المعلقة على جدران الشرفات، وقرون البامية الملضومة في عقود طويلة لتجففها الشمس.

أمشــي حتى يفاجئني دخول الليل والظلمة الخفيفة في الخلاء الــذي يمــتد شاسعاً قبل أن ينتهي بمزارع الذرة الكثيفة في امتداد الأفــق البعيد. يقابلني الخوف ورائحة التراب العاري. أجزع حين تلقانــي مفاجأة، كأن يرتفع صياح مفاجئ لأحد العفاريت أو ينبعث

t.me/qurssan

مـــن الأرض كلبٌ جائع يعدو باتجاهي، فتصطك أسناني ويزعق قلبـــي فـــي صدري. أتباطأ قليلاً حتى يعبرني بأمان، ثم أستجمع فتات نفسي والتفت بزهو لأعود.

توصـــى أمي بي أخويّ التوأم اللذين ينسياني فور انطلاقهما فـــوق الدرّاجـــات، يصـــفع سيقانهم الدوّارة الهواء المنعش وتبقى أيديهما أوتاراً مشدودة على قوتها، على لهفتها، ومتحسبة لمفاجآت الطـــريق. تعوضني عن الدراجة بعروسة صفراء الشعر، باردة، صـــامتة، سيقانها قصيرة، أراها فأراً تافهاً وحقيراً لا يتناسب مع رغبتـــي فـــي التشـــبث بمقـــود الدراجة مثلهما، أقذف بها الحائط غاضـــبة كي أكسرها وأغضب أمي، ترمي لي بحبل طويل لأقفز من حوله على بسطة السلم.

"لعبة كنت أدمنتها كثيراً.. رغم بغضك واحتقارك لها، تعلّقين فى الفَراغ الداكن بين صمت الباب ووحشة الجدران، تنتظرين أن تعبر المحن من تحت قدميك، تنتظرين أن تنتهي من تلقاء نفسها".

أصـــرت الســـكرتيرة فـــي يومي الأول بالمدرسة أني سمر، أحدق بأنفها الحاد ثم أصرخ:

- لا. أنا سحر أنا سحر.

تركـــت القلم من يدها والتفتت لزميلتها تحدثها بنفاذ صبر عن نســـيان الصـــغار ثـــم أخذت تسجل اسمي كما تراءى لها فبكيت. مازلت أتذكر تلعثم لساني والتصاق رموشي بالدموع، وأحس ذلك الانسحاق وتلك الرجفة تتوغل فيّ لتصوغ شكلاً جديداً لمخاوفي.

t.me/qurssan

لم تنقذني سوى ابنة جيراننا التي صدقتها المرأة لأنها تكبرني بعامين، ابنة جيراننا صارت منذ تلك اللحظة صديقتي، خاصة بعدما عرفتني بأخيها منتصر الواقف بمنتصف الطريق بين صفي وصفها في نفس المدرسة، وفي نفس الشارع الذي هو شارعنا شكلنا بمشاركة التوأم فريقاً للعب بعد أن ضاقت بصخبنا البيوت.

نلعب المساكة أو الحجلة وعندما تكون بحوزتنا كرة نلعب صياد السمك.. أصير سمكة صغيرة تهرب من ملاحقة فريقين من الصيادين العتاة ولا تستسلم لهم إلا بعد أن تقطع أنفاسهم من العدو والقفز. "ذات مرة سينفلت انتباهك بعيداً عنهم، سترين سمكة بطول قطار تجذبك داخل أغوار البحر. سترين الخوف. اللحظة التي أفلتت منك ستدفعين ثمنها ضربة قوية للكرة بوجهك، وصيحات فوز تعلن خسارتك".

كنا نجلس لالتقاط الأنفاس حين يهدنا التعب فيبدأ منتصر في جمع حبات الحصى والزلط والحجارة الصغيرة ليرصها على الأرض في لوحات بقيت في ذهني عالماً حياً وخصوصياً لعقل طفولي يبعث على الدهشة. كنت أسميه "عراف الأرض" لعلاقته الحميمة بكل أشيائها. ومن كيس حصاته الصغير كان قادراً على خلق الألفة والجمال في كل وقت، كان مغرماً بالتشكيل الفني، بينما سيدفعني جموح خفي إلى الوقوع في غرام الشاشة الكبيرة. نلتم في صباحات الجُمع ونقطع الطريق حتى شباك التذاكر.. تبتلعنا طوابير طويلة محاطة بمجموعات من الصبية، متهافتين على الصور الدعائية المعلقة.

t.me/qurssan

فـــي القاعـــة المظلمـــة تنفتح الشاشة على الحدود اللانهائية للمخيلة، تلك المعجزة التي لا يتصورها أحد، وحيث أكون لازلت ملتصـــقة بمقعدي الملتصق بالأرض ستأتي مجموعة من التنانين المجـــنحة لتحملني فوق مركبتها وتنطلق بي في الفضاء نحو بلاد الجلـــيد البعـــيدة، ثـــم تتركني لأسقط في أعماق النجوع المنحوتة بصخر الجبل، إلى حيث تحلق روحي برحابة مخيلتي، ويحتويني السحر الآسر للصور الناطقة، ينقذني من فقر الحياة المُعاشة ومن إنشائية أبي..

عـــندما كان يتصيدني الحنين للبحر، كان أبي يشير بفخر إلى شـــريط مائـــي رفـــيع ليهدئني، فإذا فقدنا البحر فها هو النيل يمد فروعه نحونا، ويحكي عن الدلاء التي كانت تذهب بعيداً في عمق الـــنهر، وعن قلوب تخفق في انتظار قياس الفيضان، خمسة عشر ذراعـــاً تعني السلامة، ستة عشر تأتى بالسعة والرخاء لعام كامل يستحق أن يتمطى الفلاح وهو يغني بارتياح، أما اثنتا عشر ذراعاً فالويل من المجاعة والهلاك.

لـــم تكـــن تعنيني كل تلك الأذرع التي يتحدث عنها أبي، لأن هلاكـــي كان من الممكن أن يتحقق بذراعين اثنتين في نهر عميق لا يصلح للسباحة، ماؤه داكن وسخ يراه أبي مصدر الحياة لشعب كانـــت أرضـــه أخصب أراضي المعمورة.. حتى أنها تنبت بدون حرث!

t.me/qurssan

خبا الفرح من عيني أمي وغطتهما غيمة من حزنٍ دفين كان يستوقفني شيئاً ما كلما رأيتها تتحول أكثر فأكثر نحو الاستسلام للصمت والكآبة.

- الحياة محطات متتالية من الأفراح والأتراح لازم نقبلها كما هي مهما كانت غير منطقية أو غير عادلة، وإلا استدرجتنا للجنون. تقول أمي وهي تربت ظهري وتتنهد تنهيدة طويلة ثم تنهض لتنزع غسيلنا الجاف من فوق الحبل وتجلس لتطبقه منهكة البدن.

أبي زاد قساوة الحياة على قلب أمي في الأعوام التالية لما انعزل بإحدى الغرف وحيداً، يغلق كتاباً ويفتح آخر، ويلصق على الجدران صوراً وقصاصات أوراق.

معلم التاريخ كان يبحث في الكتب، يفتش عبر سنوات مضت عن أجوبة لأسئلة كبيرة.. لم يجدها أبداً. يخرج لنا ثائر المزاج، معطوب الروح. في إحدى الليالي سمعته يصيح فجأة:

- سلطوا علينا الدودة.

ربتت أمي على صدره برفق:

- هي بطبعها خائنة، وبعدين دى حكاية فات عليها سنين.

صمتت قليلاً قبل أن تنتبه ليقظتي بجوارها، ثم راحت تتحسس ظهري بحنان:

- من يوم ما جابك ربنا نومك نوم براغيث. تقولها أمي بصيغة احتجاج على ما يبدو لها شقاوة مفرطة مني في الليل

t.me/qurssan

والـــنهار. مـــا أن يســـكن صخب البيت وينام التوأم حتى أصحو وأتسحب على أطراف أصابعي فلا يشعر بي أحد.

الـــباب المـــوارب كـــان يحملني لعالم أكبر مني.. تغلق أمي الـــنافذة ثم تستلقي بفراشها ساهمة، تمرر يدها على شعرها، تمرر يدهـــا على صدرها ثم تغطي وجهها المغسول بالدمع لتنام وحيدة، فيما يكون أبي ساهراً على كتبه في الحجرة المغلقة.

فاجأتني ذات صباح بقرار السفر:

- قبلـــنا الإعارة. حدث ذلك بعد أيام قليلة منذ رأيتها تستقبل جارنـــا فـــي حجرة الصالون. انقسمت بين وجهيهما النظرة ذاتها، يدها في يده، وجهها قريب من وجهه، صدرها قريب من صدره، ويدهـــا لا تزال بيده. عندما رأتني ارتبكت وانقلب وجهها تجهماً، ســـحبت يدهـــا مـــن يده سريعاً، ثم راحت بعد ذهابه تحدثني عن الخدمات الكبيرة التي أسداها لنا ذلك الرجل.. "جارنا الطيب". منذ تلك اللحظة صرت أكره ذلك الرجل كثيراً، وأكره كتب أبي.

- أربـــع سنين.. الإعارة كلها أربع سنين تمر بسرعة، بعدها نغير حياتنا كلها.

عـــندما تســـتدرجني إضاءة ذلك المشهد الذي انطفأ منذ قرابة العقديـــن أفكر بأن أمي، التي كانت تغالب الدمع وهي تنطق بهذه العبارة، ربما خشيت أن تزل قدمها وتنزلق بعيداً عن الحب الوحيد الذي خُلقت من أجله، لكنه كان من العسير عليّ في ذلك العمر أن أفهم تماماً ما يحدث أو أن أقدر حجم معاناتها.

t.me/qurssan

تركـــت جدتي أفراخها وعنزاتها السُمان وجاموسة واحدة لا يعـــرف أحـــد سر حلاوة حليبها بعد أن ودَّعت أكثر من عشرين جـــارة مـــن العجائـــز مبتســـمات ومتشابهات بظهورهن المحنية وفـــراغات أسنانهن المخلوعة، كن يملأن حياتها بكلمات مكسورة وحكايا ضاحكة.

ودعتني أمي بحضنٍ عميق ونظرة اعتذار عن تركها لي، ما كانـــت تستطيع أن تعهد لأي كان برعاية أخويّ المتفلتين. ودعتها بتنهيدة ارتياح لم أفهم لها سبباً.

* * *

t.me/qurssan

لــولا أن العــناية الإلهة وقفت وراء جدتي لما احتملتْ البقاء معي.

تكفــي فنجان القهوة فوق الصينية ثم تعدله بعد برهة وتقربه من وجهها، تحدق في خيوط البن المشتبكة وتقول كلاماً غريباً فلا يخذلهــا الله أبــداً. أصــبح التردد على بيتنا مرغوباً من الجارات اللاتــي لــم يدخلــنه في عهد أمي، دون أن تكتشف أي من تلك السيدات "مريدات جدتي" فقر بصرها وزخم مخيلتها وستر الله.

بعــد أن يــنفض المجلس الرحب تنسحب جدتي نحو المطبخ لــتأكل وتــأكل، شــرهة للأكل كأنما بملء معدتها تعوض خواء روحها لحزنها على من تركتهم. لذلك لم تكف عن أن تفاجئني كل يوم بلائحة طويلة من الطلبات..

- يدك في يد البت بنت البواب، إياك تتأخري.

- أمرك يا جدة.

كــان اســمها فرح، أو هكذا كنت أسمي تلك البنت المفلوجة الأسنان التي لا تكف عن الضحك مخفية صوتها بوضع يدها فوق فمهــا حيــن يفاجئنا صوت خشن لأحد الكبار ومبقية على بهجة عينــيها المكابرتين. كانت في مثل طولي، ننسلق انحناءة الشارع الصــاعد كــي نصــل للجزار، البقال والمكوجي. أعطيه المريلة الكاكــي ثــم ننحرف يميناً في طريق عودتنا نحو العطار لنشتري النشــوق لجدتي ونعود بأحمالنا الثقيلة.. وبقايا التعليقات المدهشة التــي ســمعناها من الباعة والمارة، تضحك وهي تمد يدها لتأخذ بعــض الأكــياس مــن يدي التي تنوء بحملها سريعاً، أغتاظ من

t.me/qurssan

ضحكها.. هي الأصغر والأقوى مني ثم أعود لمحبتها حين أحس ارتياح يدي.

قرب البيت ينضم لنا منتصر ليحمل عنا بعضاً من همومنا قبل أن تودعنا فرح عند المدخل، فنصعد سوياً ثم نتوقف أمام بسطة السلم، التي ملأنا جدرانها بأسماء أصدقائنا وخطط ألعابنا كما ببعض الألغاز والأسرار والشتائم الصغيرة، مستغرقين في ثرثرة طويلة.. نسخر من المدرسين، ونحيك المؤامرات ضد بعض من زملائنا، ولما كبرنا بعض الشيء صرنا نتشارك في رسم الخرائط، وإعداد مجلات الحائط. هواية علمني إياها:

- خلينا نفرغ أنفسنا قليلاً. يقولها مبتسماً.

- جميل زي صبية.. استغفر الله، جميل زي ملاك. تقول جدتي بعد أن يودعنا بنفس ابتسامته الطيبة ويغلق الباب برفق.

منتصر لم يزعجها أبداً، حتى بعد أن خط شاربه وبرز عرض منكبيه. وسوف تظل صداقتي وإياه الشيء الوحيد بحياتي الذي أحسد نفسي عليه.. كنعمة خالصة.

كثيراً ما كانت تتركنا لنتحدث، وفيما تكون يداها مشغولتين بملء القدور بالطعام، لا تنسى أن تأتنا بكوبيّ الحليب الدافئ الذي لا يفيد لأعمارنا سواه لأنه "يرم العظم" كما تقول. يأتي الهواء ما بين الكوبين معبقاً برائحة الزبد الذي تضيفه لكل صنوف الأطعمة، ثم تضمخ ببقاياه وجهها وشعرها الخفيف الشائب، لذا تبقى صورتها مغمورة برائحة الزبد في أعماق ذاكرتي.

t.me/qurssan

مـــع ضـــعف بصرها لم تستغرق جدتي سوى بضع ساعات لتـــتعرف أماكـــن كـــل الأشياء، مستعينة بذاكرة جبارة، لم يجرؤ الخـــرف أن يشـــق طريقه نحوها، ولم ينل من حكايات كثيراً ما كانت تخفف عني صمت الليالي..

تحكـــي عـــن الإسناوية الأشداء الذين كانوا يتلفعون بشيلان صـــوفية حيـــن يـــأتون لـــيحملوا الســـبائخ من شعر القطن فوق الحميركـــي تغـــزلـــه النساء هناك بمغازلهن، ثم يقدمونه خيوطاً مـــتفاوتة الســـمك للنســـاجين الذي يقومون بالمواءمة بين خيوط الغـــزل: الســـميك مـــع السميك والرفيع مع الرفيع، كي يصنعوا منســـوجات موحدة الصنف ليس فقط للسكان المحليين بل يبادلونه أيضـــاً بالبن والتوابل والبخور مع القبائل العربية التي تتردد على أسواقهم على فترات متباعدة.

سيخرج صبي موصول الحاجبين من مخبئه في جنته البيضاء ليعدو وراء الحمير التي أخذت قطنه وهو يصيح بغضب:

- يـــا ولاد الحرامـــية. الصبي موصول الحاجبين الذي نهره أبوه سيصبح بعد حوالي عشر سنوات زوجاً لجدتي التي لن تصبح أمـــاً لبنـــت أو ولد سوى بعد عشر أخرى. والولد الذي سيركض وراء ســـيارة أولئك المعتمرين بقبعات إفرنجية هذه المرة بعد أن يكونـــوا قـــد حملـــوا القطن فوق قوافل الجمال إلى البحر ثم إلى مصـــانع لانكشير هو أبي الذي ستبقى تقطيبة وجه أبيه عند وداع قطـــنه محفـــورة بذهنه طوال حياته، كان ذلك قبل دق المسلح في الأرض وشـــيد البوابات حول مساحات شاسعة هي مصانع تحوى

t.me/qurssan

مكانــن تديــرها الكهــرباء وعرق آلاف الرجال، وقبل أن تغني المغنية بحماس:

هذه أرضي أنا وأبي ضحى هنا.

جدتي لم تكن تميل لذلك الغناء، كانت تحب أن تسمع "غريب الــدار" من فم جارتنا أخت عم سعد البوسطجي التي ما كانت تجد السلوى بعد رحيل زوجها سوى في الغناء والثرثرة مع جدتي. لعم سعد وجه بشوش وأسنان بيضاء تكشف سمرة بشرته وطيبة قلبه، أسمع صوته فأجري، أحملق بوجهه.. في المرات التي يكون لديه شيء لي، أراه جميلاً.. فرحاً وفخوراً بنفسه وبمهنته، حتى أرغب فــي القفــز لأتعلــق بعنقه لولا الخجل و.. عينيّ جدتي، أما في المــرات الأخرى فأراه يشيح بعينيه عني، يغالب إحساساً بالخجل وقلة الحيلة.

بالطــبع لــم يكــن مسئولاً عن التأخير، ولا أعرف من كان مسئولاً عن سفرهم وبقائي وحدي، ولا من كان مسئولاً عن بقائي عالقة في الفراغ في انتظار أن تمر المحنة من تحت قدميّ.

الرســالة الوحــيدة التــي لديّ من أبي، وصلتني بعد سفرهم بشهور قليلة، في الذكرى الثانية لحرب أكتوبر، كان مدهشاً بعض الشيء أن يتحدث عنها في ذاكرها بذلك الحماس الذي لم يبلغه في لحظــات وقوعها الفعلي، ربما كان ذلك بفعل الحنين لبلده. أكد لي بقلمه الرفيع:

– ذلك كان رائعاً لكنه غير كاف.

t.me/qurssan

خـــط أمي متعرج، ثقيل الحبر يرهق عينيَ، رسائلها القصيرة كانت تحمل وصاياها التي تكررها في كل مرة كأنها لم تكتب لي سوى رسالة واحدة خلال تلك السنوات:

- لا تتكلمـــي كثـــيراً، إيـــاك أن تعصي جدتك، لا تضيعي الوقـــت. لا تفعلي، لا تفعلي. وتنسى أمي أن تذكر لي ما يجب أن أفعل، أبقى أسيرة لرغباتي الجامحة في التجريب.

تراني جدتـــي منحنـــية على ثروتي الشحيحة من الكلمات، أفـــرغها مـــن الصندوق الذي احفظها به كل فترة لأعيد قراءتها وتحـــري تواريخهـــا، فأكتشف أن السنين تمر.. دونهم، واكتشف غضـــبي، لأنهـــم نسوني وراحوا، تراني جدتي متجهمة فلا تربت ظهري بحنان كما كانت تفعل أمي، لا تطبطب عليَ لتواسيني، ولا تلومنـــي حين تراني أنزع الأزرار الملونة من الثياب الجديدة التي كـــانوا يحضرونها لي في إجازاتهم القصيرة، ربما كانت تدرك أن بي حاجة حقيقية لأفسد شيئاً يخصهم.

جدتـــي لـــم تكن تشعر بما يحدث لي. لم تفسر لي لماذا كان جســـمي يـــنمو خارجاً عني، بشكلٍ يثير دهشتي، ولم أحدثها عما أشـــعر بـــه.. ذلـــك الجموح بداخلي ما كنت أفهمه ولا أتحكم به، يجعلنـــي أوزع نظراتي يميناً ويساراً، حتى أجد العين التي أحسبها تـــتعرف خـــباياي، عـــندها أحس انفلات روحي، فينخسف قلبي ويرتعد جسمي وأهرب، أبتعد. ذلك الجموح هو الذي كان يدفعني لأن أقفز درجات السلم مجتمعة، قفزات كان من الممكن أن تودي

t.me/qurssan

... ي. أقفــز.. ألهث وأتقلب بفراشي بعيداً عن عينيها حتى يهدني الإعياء وأنام. فقط تذكرني لمّا تلاحظ اندفاعي وطيشي:

- في عمرك كنت أشتغل ليل نهار.

أنظــر لهــا مندهشة، فتحكي لي عن رءوس البنات والنساء المنثورة في الغيطان تحت رحمة شمس الصيف التي لن يحتملنها ســوى بالضــحك والغناء وهن ينزعن اللطع الصغيرة كي تتفتح الــبذور ثــم يُجمــع المحصول في الوقت المناسب. وتحكي عن الانتظار بالقرب من أسطوانتين خشبيتين إحداهما موازية للأخرى مع مسافة رقيقة بينهما بحيث يسبب دورانهما في اتجاهين متباينين تــراجع الــبذور إلى الخلف ومرور شعر القطن إلى الأمام فتتلقفه أيدي البنات المتشوقة لتجعله كدساً فوق كدس تفرح العين. سيبرز الفتى موصول الحاجبين وهو يتأمل الشعر الأبيض صائحاً:

- قشدة.. قشدة. عندها يبدأ الفرح الحقيقي، لأن عناء الحرث والــبذر والــريات الدائمة ثم نزع الدودة وصولاً إلى الحصاد لن تخففه سوى تلك اللحظة التي يأتي فيها القطن بأفضل لون له.

تذكرني جدتي، ربما لتخجلني من نفسي، بالتعب والمسئوليات التي فرضتها عليها الحياة مبكراً ولا تنتبه لذلك الوهج في نظرتي أثــناء حديــثها عــن الألفة والصحبة الطيبة التي ظللت حيواتهم وخففت من أعبائهم وملأتني توقاً.

يبدو لي أن هنالك أشخاصاً يكونون مختصين بقدرات إنسانية مدهشــة، لم تكن جدتي موهوبة في منح الحنان رغم امتلاء قلبها به. أظنها كانت تخجل من الإفصاح عنه، لكنها كانت موهوبة في

t.me/qurssan

تحويـــل طاقاتها الداخلية من صورة إلى أخرى، تُحول حنانها إلى طاقـــة حركة وقدرة نبيلة على احتمال ما لا يُحتمل. هذا ما أثبتته لي الأيام.

تمـــلأ الكـــأس بالماءُ البارد وتكمد جسمي المنقوع في الحمى التي غطت جلدي بطفوح قرمزية قبل أن ترسم هالة بيضاء حول شفتيّ.

بعـــد أن أيأســـها البخور والمبخرة، وأعياها الشيح والينسون والنعـــناع، كما لم تجد مردوداً سريعاً لرقاها وتعويذاتها، احتملت جدتي الكثير من المشاق والأهوال لا تحتملها من هى في عمرها، حـــتى لا تتركنـــي بيـــن أيدي أفراد المشفى. رغم ضعفها البادي تصـــبح قوية كبركان عندما أحتاجها. باردة، جافة ومتينة تحملني كواحدٍ من أفراخها لعيادة الطبيب كل أسبوع ثم تستغرق في تعقيم "الســـرنجة" الزجاجـــية في الماء المغلي حتى لا يتلوث دمي حين يشـــك التمرجي العجوز به وريدي الرفيع، تطعمني وتغسلني دون كلمة حانية، دون قبلة أو حضن دافئ، حنانها مكمور ونبلها البارد وحده ما يطفو على السطح.

كانـــت جنازة جدتي بعد عدة سنوات مثاراً لفخر أبي، اجتمع بها حشد مهيب من سكان الحي وأهالي ميت لوزة، مذيلين ببضعة عشرات من الأفراخ والعنزات و.. جاموسة وحيدة لا أحد يعرف سر حلاوة حليبها.

* * *

t.me/qurssan

أكانت تلك الصغيرة أنت؟

مررتْ المرطب سريعاً فوق شفتيها، ثم ابتسمتْ فأطلت صورتها في المرآة مرضية، أخذتْ تكرر لنفسها بعض الكلمات والجمل تستعد لنطقها للمرة الأولى بحياتها، لبستْ فستانها الصوفي المائل لونه للبياض، فللأبيض وقع خاص في الشتاء. عبرتْ بالمشط العاجي رأسها فانساب شعرها طويلاً فوق ساعديها، عقدته كعكة عالية فوق رأسها بمشجب سوف تنزعه مجرد أن تفترق خطواتها عن الشارع حيث تقف جدتها بالنافذة، تلوح لها بعد أن وعدتها بأن لا تتأخر.

كلمة وجدتها في كتابها قبل عامين، الفراشات الزرقاوات هي التي دلتها علي من كتبها، هي التي قادتها نحو هلاكها، وحبها. صارت كل يوم تتحسس الكلمة في كتابها برفق، تحفظ لصاحبها الأغاني، وتحفظ السر لنفسها:

- هذا من أحب.

على مقعد خشبي بمحطة السكة الحديد جلستْ.. تفصلها عنه مسافة صغيرة.. كافية لأن تتأمل بدقة الوجه الذي لن تلمسه أبداً سوى في خيالها. لقاء انتظرته طويلاً بعد عامين مشبوبين بنظرات يتبادلانها خفية أثناء الدرس، أتت أخيراً اللحظة التي يجلس فيها بجانبها ليسمع كل منهما الآخر.

عندما التقت عيناه بعينيها فقدت الجرأة سريعاً، وتحولت عيناها للوردة المعلقة بيده، حمراء زاهية رغم الصقيع الذي جعل ساقيها ملتفتين حول بعضهما. نظراته مفعمة بالشوق، وكلماته

t.me/qurssan

سـريعة متخبطة، عن انتظاره لتلك اللحظة وعن أشياء أخرى ما عاد بإمكانها أن تتذكرها الآن.

فـي صـمت تـتأمل الوردة، وتتأمل كلماته، وصورته التي عكسها ضوء المصابيح المضببة فوق زجاج القطار العابر ضمن وجوه أخرى غريبة. انتبهت فقط حين حدق بعينيها:

- هل تحبينني كما أحبك؟ حدقت بكفه النحيلة المرتعشة التي تـراها لأول مـرة، ثم تركته.. قبل أن يقدم لها الوردة، وقبل أن تسمعه الكلمة التي أتى لسماعها.

تجـر خطوات واسعة وتهرب، تندفع بقوة لتبتعد.. كل خطوة تترك لها مسافة أقل للتراجع.

لماذا انعقد لسانك؟

منكمشـة تحت أغطية فراشك الثقيلة.. بردانة، تخفين وجهك وتذرفيـن دموعاً سوف تمسحينها عندما يفاجئك الصباح، وتعقدي شعرك من جديد:

- لا. هـذا ليس من أحب. تقولينها في اللحظة التي لم يتبق بذهنك من صورته سوى كفه المرتعشة.

أهـذا لـيس مـن تحبيـن؟ فلماذا اختلقت الذرائع الكاذبة لما تساءلت جدتك عن تورم جفنيك؟ ولماذا التوت أحشاؤك حين رأيته بصحبة فتاة أخرى؟

أكنـت المغرورة التي أرادت من يجثو ويتذلل عند قدميها؟ أم الخائفـة التـي تـنكر خوفها وتحتاج من يأخذ بيدها نحو أبواب السعادة؟

t.me/qurssan

مـــرارة أحشائك الملتوية ظلت تتجدد طويلاً بفمك، لم تقذفيها الخـــارج مـــع الشـــعارات الطنانة التي أطلقها لسانك تطالبين مع رملائك بنزاهة الانتخابات الطلابية، ولم تكف عن مواجهتك:

- لماذا تركتِ الوردة معلقة في الصقيع؟

* * *

t.me/qurssan

أعــود بجروحي إلى منتصر، ليخفف عني. أحدثه عن الولد ذي العينيــن العميقتين والولد الذي فاجأتني رسالته دون أن يذكر اسمه، ويحيك معي الخطط كي ألفت انتباه الولد الذي يخفي عينيه تحت عدسات سميكة ولا يلتفت للبنات.

ينصــت لــي برقته التي تفتح أبواب قلبي الموصدة، بطبيعته كــان مجافــياً للعنف الذي يتباهى به الأولاد عادة في ذلك العمر، رقــته نفسها هي التي كانت تؤرق أباه الذي أراده "ديكاً للبرايز".. خشناً قاسي القلب. كان منتصر وحيداً لحفنة من البنات أتعس أبوه حــياة أغلبهن، وسيبقى ذلك الرجل بذهني صورة للقسر والتعنت، بغيضة دائماً لم تخفف منها الشفقة التي تأكل القلوب على المعجزة وكبار السن.

كانــت كبرى بناته مولعة بالحركة، رشيقة جداً وخفيفة كشبح مطــاط، تــتكور حول نفسها حتى يصير بالإمكان طيها في حقيبة صغيرة، تجتاز مسابقة إلى الأعلى منها بجدارة، لكن أرغمها ذلك الــرجل على دراسة جامعية جادة تليق بفتاة على حد قوله، مباعداً بينها وبين رغبتها في التحليق إلى الأعالي، ومحولاً مجرى حياتها بشكل نهائي، الأمر نفسه مع وحيده الذي كان فناناً حقيقياً فأرغمه علــى العسكرية، دون أن يدري أنه بذلك كان يفتح النار على قلب صغيره.

بصــوت خفــيض وملامح تغطيها الحمرة المفاجئة للخجل، اعــتاد منتصــر أن يجلــس ليحكي لي مغامراته كما أفعل معه، يغمرني الترقب والدهشة من بؤس اختياره في كل مرة، فأصيح:

t.me/qurssan

- كـــل مرة تحب واحدة أكبر منك؟ إيه حكايتك بقى؟ يجيبني بصوته الخافت منزعجاً من صياحي:

- أصلك مش فاهمة حاجة أبدا. الحب مفيهوش أسئلة.

يعلو ضحكي منه:

- عينـــي يـــا عينـــي على فيلسوف الغرام. نضحك كثيراً ثم يذهـــب. لا يعرف منتصر كيف أعوي في فراشي وحيدة، حائرة في فضاءات الوحشة الهائلة:

لمـــاذا تبقى أرضي بور لا تعرف الحب؟ أغطي وجهي لأنام فيتســـلل نحـــوي وجـــه تلك المرأة، ساكنة البناية العالية المواجهة لبيتنا.

قمـــيص نومهـــا الـــوردي الشفاف هو ما كان يثير حفيظتي نحوها وفي بعض الأحيان يثير فضولي، الوحيدة من سيدات الحي التي لم تدخل بيتنا ولا أي بيت آخر.

تدلـــي ســـلتها المجدولة من الخوص لباعة الفول أو الخضار فيـــبرز نهداهـــا الجريئان بلا وجل، وهي تطلب حاجياتها بصوت مرتفع ثم تجذب الحبل لترفع السلة دون أن تتطلع حولها.

ظلـــت لغـــزاً يحيرني لسنوات طويلة لا أجرؤ على محاولة ســـبره ولا أتمكـــن من نزعه نهائياً من رأسي. سمعت عنها من الغرائب والأساطير ما كان عقلي يتردد في قبوله ثم يتغاضى عن لا معقوليته رغبة في إدانتها. تقول إحدى زائرات جدتي أنها تلبس الرجل وتخلعه كما حذاء.

t.me/qurssan

– عــندها أربع أولاد من أربع رجالة وعايزة تتجوز لخامس مرة.

تتفتت بين الجارات شذرات الحكايا عن غلاء المعيشة، وعن حرامـــي الغسيل الذي تمكن من السطو على أربعة مناشر في ليلة واحـــدة، ثـــم يذكرن بشغف ثمار جوز الهند الكاملة المنزوعة من الغابـــات الإفريقـــية وعلب الأناناس المحفوظ في محلول السكر، وغيرها من الأشياء التي تعود بها الأوتوبيسات من.. "بور سعيد"، يدخـــل رنيـــن اســـمها أذنيّ بارداً ومحايداً، كأنها.. لم تكن يوماً مدينتي، كأني لم أترك بها أرجوحتي وأعوامي الستة الأولى حين طُردنا منها تحت غطاء الليل.

تكـــون الثرثرة قد عادت لبؤرة انطلاقها الأولى حين أنتبه من جديـــد.. تحكـــي جارتنا، ذات العيون الكبيرة المتذبذبة بكل اتجاه، عـــن تلك المرأة، وعن أهلها الذين تخلقوا بطبائع الأجانب الشاذة، فـــلا يعـــرفون كـــيف تُـــربى البنت، ولا كيف يجزون أهواءها، لينتزعوا منها القدرة على التمرد والجموح لتصبح وديعة، مسالمة ومميزة عن الرجال.

يـــرن بأذنـــي صـــوت جدتي ترد عليها ضاحكة وهي تمرر أناملها فوق قرطها الذهبي بدلال لا أنساه:

– بس يا ولية.. كفاية غل بقى.

ابتســـم وأنـــا أســـترق السمع إلى أحاديثهن التي لم أكن أفهم تفاصيلها تماماً، لكني كنت أحدس ما تنطوي عليه من محظور لمّا تخفت أصواتهن عند عبوري بينهن، أوزع أكواب الشاي بالنعناع

t.me/qurssan

الذي تفضله جدتي بالأخص حين تفاجئها آلام القولون ثم أتذرع بمع الأكواب الفارغة لأعاود السمع. تحكي أخرى عن عطرها الذي يفوح إلى الشرفات المجاورة فيجعل رجالهن يتقلبون فوق وسائدهم مبتئسين.

تدندن جدتي: يا عم يا عطار عطرك فايح
عطر البنات البيض له روايح

أكان لتلك المرأة سحر كليوباترا التي أسقطت عرش روما بعطرها؟

تأتي ابنة عمي لزيارتنا بفطير وجبن وكرانيش كبيرة من الفانيلا المفرغة على صدرها، تحدثني عن لحظات الحب المختلسة تحت الأشجار الوارفة وخلف عرانيس الذرة، ثم تهديني عطر زهور الحناء الذي يتلاعب بالقلوب ويجلب الحب.

ابنة خالي تحمل لي مجلات الأزياء الحديثة وجونلة قصيرة واسعة – لم ألبسها أبداً – وتفاجئني بألوان صاخبة على وجهها، وقصص من أحبوها وسقطوا عند قدميها، ثم تهديني العطر الفرنسي الذي يفتك بالقلوب ويجلب الحب.

أستفيق على خوائي.. لا أجد لي عطراً خاصاً.. ولا حكايا، خطواتي قصيرة، تنتهي قبل أن تبدأ، لمَ لا يصبح قلبي قادراً على المنح لا المنع؟ على الأخذ لا الصد؟ أهرب من ضآلتي بأعينهما وأصيح:

– الحب كلام فارغ. شوفوا العالم تعرفوا الأهم.

t.me/qurssan

أغرز وجهي في صحيفة قديمة لأتعالى عليهما وتبقى عيناي تحدقـــان فيّ، بجفوة في نفسي تجاه نفسي. بإخفاقاتٍ ملغزة وأسئلة تستعصي على فهمي.

لماذا لم أجد الحب الذي يجعلني أضع نفسي عند قدميه عبدة؟ لمَ لم أستحق الحب فيجعلني سيدته؟

أغطي وجهي ثانية لأنام فأرى قميص جارتنا الشفاف معتمراً برأس كليوباترا التي تتقدم بخفة ينسحق أمامها قلب يوليوس قيصر مـــأخوذاً بســـحر عينيها ورقة صوتها واضعاً نفسه وإمبراطوريته رهن إشاراتها، وما عجزت السيوف والجيوش عن تحقيقه سيتكفل به همس الليالي. وقفت قليلاً تحدق في عينيّ كأنها تلومني:

- هذا ليس عدلاً.

أنتـــبه لخفق قلبها ينشق له الصخر حين تقع عينها على حبها ومصيرها مارك أنتونيو الذي ينجرف نحوها مثلما انجرفت نحوه، وطواعـــية يمنح كل منهما نفسه وما لديه للآخر فتنقلب الدنيا على رأسيهما.

أبحـــث عـــنها لأســـألها عن شعورها في تلك اللحظات، هل ندمـــت؟ هـــل انقلب حبها كرهاً؟ تكون قد اختفت المرأة الملغزة، المـــتراوحة بيـــن الحدين المتقابلين للمرأة.. حواء المغوية وحواء العاشـــقة، التـــي ستبقى صورتها لتناوشني طويلاً لأن سرها مات جلـــيلاً كميتتها ولأن ما أملته على الكاتب قبل أكثر من ألفيّ عام ونقشه على الحجر مازال خبيئاً حتى يومنا هذا ولأن التوق لجنون

t.me/qurssan

عشــق لا يعــرف حدود السلامة ولا تقمعه خشية الهلاك، سيبقى رفيقاً لي لسنوات طويلة.

- يضل الناس طويلاً قبل أن يجدوا ما يبحثون عنه. يحدثني صديقي بعد أن أفرغ أمامه هواجسي وأسراري، ثم ينقلني بحديثه إلى الدنيا التي لا أعرفها، منتصر كان مرآتي للعالم الحقيقي.

نلتقــي في بعض أيام الجُمع، نعرج نحو صفوف من الأبنية المــرتجلة لم أرها من قبل يفصلها شارع ضيق عن سلسلة أخرى من بيوت صغيرة شعبية وعشش مسقوفة بالقش قبل أن ندخل بيتاً مــنمقاً وحديــث البناء لنزور والدة "نادر" صديقه المعتقل منذ عدة أشهر.

صــوتها المــتقطع، حــزنها الكتيم، وتفاصيل أخرى صغيرة كانت تتشابك لتريني لوعة أم تفتقد صغيرها، فأتذكر أمي بحنق.

- كــل ده بسبب رغيف العيش؟ لمح بعيني التساؤل العفوي فأجابني ضاحكاً:

- دي قضية كبيرة جداً بس أنت أصلك خارج الدنيا.

قالهــا قبل أن يغيب عن دنياي ويتركني في ظلامها وحيدة، لكنه كان قد رمى لي طرف الخيط، فالتقطته فيما بعد لأتتبع مسار تلــك القضــية فــي الجريدة اليومية بصفحة الحوادث التي أدمنت قراءتها من السطر الأول حتى.. الأخير.

فقدت منتصر وجدتي في لحظة واحدة.

t.me/qurssan

لـــم تكن تشكو سوى الثعابين الرفيعة الخضراء التي تركض فـــي ســـمانتيّ ســـاقيها مســـببة ألماً وتورماً خفيفاً بالقدمين، لكنها تجاهلت المثل الشعبي الذي اعتادت أن ترددده:

"افطـــر فطـــور ملك واتغدى غدا وزير واتعشى عشا فقير".

فـــأرهق قلبها، بقيت جدتي تنتظر عودة الغائبين، عالقة بين الموت والحـــياة، تغالـــب ضيق الأنفاس وثقل القلب حتى تموت بين يديّ أبي.

جفـــف أبـــي دموعه ثم ترك المصحف جانباً، حيث كان يقرأ بأذنـــيّ أمـــه الميـــتة ثـــم صاح عندما أدهشه نحيب منتصر فوق فراشها:

– مـــن هـــذا الـــرجل الذي تركتماه في غيابي يقيم معكما.. تقريباً؟

* * *

t.me/qurssan

بعـــد أن دارت بـــي دورة الأيام الثمانية والعشرين أكثر من ثلاثيـــن مرة في غيابها عادت أمي. عادت بعد أن استبدلت عقلتيّ الإصـــبع برجليـــن وقورين، واستبدلت يدها التي كانت تهدهدني بأخـــرى امتدت نحوي بعلبة من القطيفة سماوية اللون، بها أساور وخواتم ذهبية، كنت أتفرج عليها وأخشى ألمسها، كان من العسير أن استوعب أنها صارت لي.

صار أخواي رجلين، قويي البنية، عريضي الأكتاف، بأعناق ممتلـــئة ولحى قصيرة مهذبة، ومسابح لامعة بين أناملهما، يغيبان بالمسجد ولا يجرؤ أحدهما على الحملقة بوجهي.

أيـــن ذهـــب الصـــغيران اللذين كنت أكومهما فوق بعضهما بضـــربة واحدة من سيف يدي؟ أو استمتع بليّ ذراعيهما فيتحالفا ضدي:

– نشد زعرورتها الطويلة. شَعري الطويل كان نقطة ضعفي الوحيدة التي تجعلني أنهزم أمامهما.

بعـــد أن عادا أدركت أننا لم نعد الصغار الذين يتشاحنون ثم يتضاحكون بعفوية وبراءة كما في السابق، صار هناك حساب لكل حركة، لكل خطوة أو كلمة.

الحســـاب الحقيقـــي كـــان لي.. بشكلٍ مباشر أو غير مباشر يوجهـــا لـــي انـــتقاداتهما لـــي.. لملابســـي، لصداقاتي، لمتابعتي مسلسلات التليفزيون. كنت أرى تلك الانتقادات رغم حدتها طفولية ساذجة وإن لن أنجو من إيذائها في كثير من الأحيان، يذكرني ذلك بتعليمات أمي حين كنت صغيرة: لا تَطلعي على كتاب ليليان ولا

t.me/qurssan

تُطلعيها على كتابك. رأت أمي الأمر بهذا الشكل واضحاً ومفسراً من تلقاء ذاته فلم تضف أية كلمة.

ليليان زميلتي لم تطلب يوماً الإطلاع على كتابي كما الشيء نفسه بالنسبة لي، كان بيننا ميثاق تعاون غير مكتوب – تدق بإصبعيها الدوم فتتعرف من الرنين أكثرها حلاوة وتنقذني من حيرتي أمام البائع كما أختار لها في كثير من المرات ثمرات الحرنكش الناضجة بالمواصفات التي علمتها لي جدتي – زعزعه لفترة قصيرة تدخل الكبار حين أثاروا حفيظة كل منا تجاه الأخرى، لكن صداقتنا اعتادت الصمود. ظلت ليليان صديقة وفية لي، تهتم لأمري وتسأل عني كما أفعل معها حتى بعد أن ظللتنا خيمة من الشكوك لفترة أخرى قصيرة.

نزع التوأم الصور الفوتوغرافية من فوق الجدران، ودقوا أسلاك التليفون الذي رن ببيتنا لأول مرة بعيداً عن حجرتي، واستبدلوا الأغاني في آلة التسجيل بأحاديث كانت تثير قشعريرة خوف ببدني كلما أصغيت لها، كانت علاقتي بخالقي تتلخص في كلمة واحدة هي "الضمير"، فحيث يكون ضميري مرتاحاً أشعر أن الله قريب مني، دون التلويح بعذاب القبر أو عذاب يوم القيامة.

أراهما يتحركان بإصرار ودأب لا يفتر في تعديل كل ما اعتدت فتجول بذهني خيالات عن عقلتيّ إصبع تتدحرجان فوق رمال حنونة وأندهش من أين أتيا بكل ذلك الصلف والتعنت؟

ما كان يقلقني بالفعل هو تشابههما المثير، أرتبك حين لا أدرك من منهما على يميني ومن في يساري، أرتبك فأنطق اسم

t.me/qurssan

أحدهمـــا بشـــكل جزافـــي دون أن أنظر لأي منهما حتى يجيبني صـــاحب الاسم فأعرفه، أرتبك أيضاً حين أتذكر أن ذلك لم يحدث لي مطلقاً قبل سفرهم.

وحدهـــا أمـــي كانت تميزهما ببساطة، في السنوات الخمس الأولـــى مـــن عمريهما ظلت تلقمهما ثدييها، لكل ثديه الخاص، لا ترضـــى بغيره ولا يجور على ما لأخيه ولو على سبيل الخطأ. لم تـــتوقف عـــن هذه العادة إلا بعدما كبرت عيونهما ونضب حليبها فأدركت أن ولع كل منهما كان بالثدي لذاته، وبعد أحد عشرة عاماً مـــن الفطـــام مازالت تستيقظ كل صباح فيأتي أحدهما ليقبل كفها اليمـــنى ويـــتجه الآخر لكفها اليسرى دون تخبط أو ارتجال. هكذا استعاضـــت عن حب أبي بعطف ولديها، لكن مكانته كرب للأسرة لم تنتقص من قريب ولا من بعيد.

كنـــت أندهش من تعلقها الشديد بالولدين وتعلقهما بها، تقضي معظم وقتها في غسل ثيابهما الرياضية وكي جلابيب الصلاة، كأن مصـــائر ثلاثتهم صارت مشتبكة بعضها ببعض بحبل سريّ بعيداً عنـــي. لـــم يعـــد الفلفـــل والشطة اللذين كنت أسوك بهما كلامي وحكاياتـــي قادريـــن علـــى جذب انتباههم نحوي لأكثر من دقائق قليلة..

أغلـــق علـــيّ بـــاب حجرتي وأبقى أستمع إلى مسامرتهم في الخارج، في خارج ذاتي، ثم أحاول أن أنساهم، صاروا يمرون بي ولا أراهـــم، أسترق النظر نحو شرفة جارتنا ذات الثوب الشفاف فأجدهـــا مغلقـــة، أرفع رأسي للصفاء السماوي أتابع سرب النجوم

t.me/qurssan

الذي تعرفت عليه حين كنا نتسلق سلالم الخدم إلى الأسطح العالية لنراقب الظهور المباغت للنجوم، فيشير منتصر إلى سرب صغير مـتردد كطفـل ضل طريقه مطلقاً عليه "النجوم الأكثر ألفة" التي نبقى نتأملها ونحدثها بأمانينا لفترة قبل أن نعتلي في الظلام ظهور الأفاعـي المسـكونة بالرعب لنعود من حيث أتينا. النجوم الأليفة تبدو الآن سرباً من الغائبين.

صـرت أرى علاقتـي بأمي مثل كيس بلاستيكي يطفو فوق سـطح المـاء، لا وزن له ولا جاذبية تشده نحو أية أرض، لكنها مغمـورة بالسلم، كنت أراها تبتعد عني فأفسح لها الطريق بفتور كي تبتعد أكثر، كأني كنت أهيئ بنفسي فراغاً لما لم أعرفه بعد.

رغم صخب حركتهم داخل البيت لا زلت أشعر بهوائه ميتاً، وأحـس بشحنات غريبة بالجدران وقطع الأثاث، كأن غياب جدتي كشـف أسـلاكاً وهمـية تجتذب عصابي، كلما هممت بالجلوس بينهم.. أفزع.

عـاد أبـي بصندوق كتبه العتيق، نفسه الذي سافر به، مغلقاً علـيه باب الحجرة الصغيرة التي لن يتنازل عنها بعد انتقالنا لبيتنا الجديد.

أتسـلل فـي غيابه إلى الغرفة المسكونة بالرهبة والغموض، سـتارة معتمة وإضاءة خافتة كأنها تتعمد أن تخبئ شيئاً بالتواطؤ مـع جـدران عالـية مغطاة بصناديق الكتب، ومكتب قديم أحيط بصـور وقصاصـات أوراق تدفع بالمساحة الصغيرة إلى اتساع الأزمنة البعيدة، يداهمني التاريخ بطعمه الحاد وسطوته الطاغية..

t.me/qurssan

أرى دولاً تـــنهار وأمجاداً تندثر، في سلسلة من المطامع والمكائد، التحالفات والانقسامات والمساومات التي يضيع فيها وجه الإنسان عـــبر أنفاق وجسور وسراديب، معارك ودماء وخارطة تتشظى. في ذلك الوقت كنا أقوى الأمم، وفي آخر بدا الانهيار محققاً، هكذا فـــي تـــبادل هزلـــي لـــلأدوار عبر التاريخ، يفتح أمامي البوابات اللانهائـــية للتســـاؤل حتى أحس رئتيّ كثيفتين بذرات غبار أزليّ فانزع قدمي بجهد لأبتعد، خشية التورط في متاعب أبي، خشية أن يصيبني ما أصابه.

عـــاد أبـــي ذات يـــوم مـــن الشارع ليفتح التليفزيون مسرعاً ومتوتراً، يصيح بصوت مذبوح:

- إزاي نصالحهم؟ طب والدم؟

اصـــفر وجـــه أمي، هرع التوأم للمسجد، وراحت تزخم أنفي رائحة الحريق.

* * *

t.me/qurssan

مـــن أرضٍ إلى أرضٍ، ومن بيتٍ إلى بيتٍ، حسبما تقذف بي الريح أرسو.

ينـــتفش بفمـــي خبز القمح الناعم الذي تقطعه أمي إلى أرباع صـــغيرة لا تمـــلأ فم واحد من أخوي محشوة بجبن الفلمنك الذي أغرق البقالات رغم أنه بلا طعم، فيدور لساني يبحث عن الذرات اللذيـــذة الخشـــنة لخـــبز الذرة، الذي كانت جدتي توصي جارتها القديمة بخبزه لنا، نغمسه في اللبن الرائب أو نحشوه بجبن القريش الذي تضيف له الزلعة نكهة الفخار المريحة.

أغمر نفسي بالماء في حوض حمامنا الجديد فتفاجئني رائحة الـــبحر مختبـــئة بروحـــي، تربكني الذاكرة العنيدة بهجمة الطعوم والروائح والنكهات، أتلفت حولي، لا أعرف أين أنا؟

صـــار لـــنا بيت جديد.. بنى أبي بيتاً كبيراً بعمدان خرسانية، مـــتعدد الطوابـــق بتصميمٍ عصري وألوان صاخبة، ثم وضع قفلاً ثقيلاً على بوابته الحديدية حتى يحمينا من اللصوص.

أســـير كالمـــنومة من نافذة إلى أخرى، بين الغرف المتلاحقة والأبـــواب المتشـــابهة فـــي قصر التيه الذي استنفذ مدخرات أبي وثمـــرة غربته الطويلة، تناديني أمي لأنزل، يفاجئني دوار رأسي فـــوق درجات السلم الطويلة، فأخفق بالفعل في التحقق من مكاني، ولا أســـترد أنفاســـي إلا حيـــن أختبئ بحجرتي الصغيرة، صار الاختباء حيلتي الوحيدة في تلك المتاهة.

بيـــت جديـــد، أسرة جديدة وراديو جديد يسرد الأرقام فتنطلق الزغاريد، تُسحب الأوراق وتقدم الملفات ثم تقرر المصائر.

t.me/qurssan

– نفسي أدخل جامعة القاهرة. تنظر أمي بوجهي ذاهلة.

– أنــت حــرة بس العاقل.... يقول عمي الكبير الذي حضر خصيصاً لتهنئتي.

– أنت حرة، طول ما أنا عايش على وش الدنيا الاختيار لك، بــس لو أنا مكانك.... يقول ويقول أبي. أبي الذي غادر صومعته فقط لأجلي.

ســقط اسم حلمك فجأة من ذاكرتك، سهواً أم خوفاً أم ارتباكاً؟ مــتعلقة فقط باسم عارٍ لمدينة تظنين أن لديها خلاصك، ومتجاهلة سؤالك الحقيقي:

ماذا أريد أن أفعل بحياتي؟

كنت أرى نفسي أصلح لأشياء كثيرة، ربما لكل الأشياء ولكل المهــن، وكثــيراً ما حدثت منتصر عن رغبتي في الاشتراك بأي جزء مهما بدا صغيراً من صناعة الفيلم، وكان أحد مدرسيّ يغذي حلمــي بأن أصبح صحافية تغير وجه العالم بثلاثة أصابع ممسكة بالقلم، أما الحياة الحافلة بالسفر والمغامرة لمضيفة الطيران فكانت لا تــزال تســحر خيالي. لكني سأتراوح سريعاً من الثقة المطلقة بنفســي فــي كل تلك الصور الزاهية إلى فقدها تماماً حد الانتهاء بأنــي لا أصلح لشيء سوى الحصول على شهادة توفر لي فرصة أفضل في الزواج مع المخاوف المقترنة بوجودي كبنت في صوت أبويّ. فبعد أن باعدوا بيني وبين الفتى الذي كان يفكر ويحلم معي فقــدت البوصــلة التي كانت تحدد لي اتجاهاتي الأصلية، وضاع الفرح بالنجاح.

t.me/qurssan

ألقت فرح بنفسها فوق صدري، وبدت سعادتها بنجاحي أكبر من سعادتي به.

– مـــبروك يـــا أبلة سحر. اندفعنا في ثرثرة ودية حميمة لا تـــتفهمها أمـــي التـــي راحت ترمقني بنظراتها ربما لأني حسب تصـــوراتها أتهاون مع ابنة البواب، لا تعرف أنها كانت تقاسمني حجرتي أيام مرض جدتي، أنام على سريري وتأبى هي أن تتخلى عني لكنها تفضل النوم على الأرض قائلة:

– أنا متعودة عليها وهى متعودة عليّ.

تتنبه فرح لقلق أمي فتحني رأسها:

– جبت البشارة وعايزة الحلاوة.

يرتبك التوأم في وجود فرح، يحملقان بها ككائن خرافي تثير فـــرادته الفضـــول الذي يثير ارتباكهما فيأتيا بحركات لاشعورية غريبة تثير غضب أمي..

– فرح.. تعالي نطلع فوق. تتبعني مرتبكة.

– كانـــت أمهـــا جمـــيلة، جمالها وفقرها طمَّعوا فيها الناس، مسكينة الله يرحمها.

أســـترجع قول أمي حين تجلس فرح بجوار ساقيّ المتدليتين من فوق الكنبة البلدي، المنجدة بورود كبيرة شاحبة، التي استغنت عنها أمي لمَّا جددت أثاث البيت.

– نفســـي أدرس الفـــنون الجميلة. مش عايز العسكرية. توه نطقهـــا وعيـــنك مـــا تشوف إلا النور، نزل أبوه على وشه بيديه الاثنين. أصيح مفزوعة: يديه الاثنين!

t.me/qurssan

- لما يا عيني سي منتصر بقت عينيه زي كاسات الدم.

غضـــب كتيم يجعلني أطبق أصابعي وأكاد أدفع بقبضتي نحو وجـــه بعيد لا أراه وأنا أحس تشنج أوردتي الغاضبة قبل أن أنتبه على صوت فرح:

- كـــان نفسي أروح المدرسة. أبتسم بسخرية ثم أخشى على فرحها أن يضيع فأحاول أن أحول سخريتي إلى ضحك:

- يعني اللي راحوا المدرسة أخذوا إيه؟

- كان نفسي أبقى دكتورة ألبس البالطو الأبيض وأكلم الناس بالقطارة زي ما بيعملوا الدكاترة في الأفلام.

- يا بنتي الدكاترة خلاص زمانهم راح.

تفـــرد ظهرها في استقامة تامة، وتبدل الجدية ملامحها وهي تقـــرب يدهـــا من أنفها كأنها تضبط النظارة قريباً من عينيها، ثم تحـــرك يديهـــا نحـــو أذنيها تضع بهما سماعة طبية ما ولما تهم بـــالكلام تنثني أمامي، وتنفجر بضحكة عميقة مكتومة حتى البكاء فتضحكني معها وعليها.

فـــرح كانت تحترف طقساً نكوصياً فريداً. عندما تثقل عليها أحمـــال الحياة كانت تقفز بعناد فطري للوراء، إلى مرح الطفولة بقـــدرة مذهلـــة على الممازحة متجاوزة اللحظة الآنية بخلق عالم بديـــل من الضحك، كما الأطفال تضحك بشكل يبدو نظراً لعمرها غـــير مهذب، لكنه مريح وباعث لبهجة ليس من السهل اقتناصها. إنه الضحك كمحاكاة للسعادة، وإن كان غالباً ما تشوبه الدموع.

t.me/qurssan

فــرح لم تذهب للمدرسة، ومنتصر لم يذهب للفنون الجميلة، وبــيدي قدمت أوراقي في الجامعة القريبة ونسيت حلمي بفرسان الشاشـــة وأقسمت أن يكون ذلك آخر ما سأفعله دون رغبتي، ولن تكون المرة الوحيدة التي أحنث فيها بقسمي.

عــام كامل بالعسكرية توزع فيه منتصر بين الهرب والحبس العقابـــي، ملاحقـــاً بالأقاويل الغامضة التي اخترعتها الأذهان من حــوله لتفسير معاناته المستعصية على الفهم. سرّ صار حتمياً ألا أعرفه، كان عليّ إذا ما قابلته بالشارع أن أشيح بوجهي بعيداً عنه مــثلما فعلــت مع البنت التي أرادوني أكرهها دون أن أفهم لذلك ســبباً وفقــاً لقرار أبويّ، رحت أتظاهر بذلك وفي الحقيقة لم نكن بعيدين أحدنا عن الآخر تماماً كما ظنوا.

قبل أن تفرغ جعبة أبويه من الحيل حيناً ومن التعنت والقسوة أحــياناً أخرى، لإرغامه على مالا يريد كان منتصر قد رحل.. لا أحد يعرف متى ولا كيف؟

اختفى كيس الحصى من تحت سريره قبل أن يكتشفوا أنه رد كتــباً كان قد استعارها للمكتبة دون أن يكمل قراءتها. آخر شيء هــو مفــتاحه الــذي لم يكن يغادر جيبه أبداً، وجدوه فوق الرف الزجاجي لمرآة الحمّام.

الكلمة الوحيدة التي تركها لي في ورقة صغيرة مطوية أتتني بها فرح التي كانت آخر من رآه:

– آسف. لكني سأعود.

t.me/qurssan

أمشـــي وأمشـــي.. أبحـــث عـــن حجرٍ لأقذفه بقدمي، لأدفع غضـــبي، حنجرتي متورمة وصدري مغلق. أمضي بحزن يتكور فـــي معدتي كصخرة ثقيلة خرساء، كأني أطارد امتداد الأفق. كأن هـــذا الكـــون يعاندني، كلما تعلقت بشيء أو بأحد فقدته، هذا الذي أضاعوه كان جزءً مني.

منتصر. لستُ وحدي من لا تفهم هذا العالم، بل أنت أيضاً.

ظللـــت لفـــترة غـــير قصـــيرة أشعر به حولي، يطمئن عليّ ويطمئننـــي وكلمـــا أحسست بوخزٍ أسفل عنقي، أحس أنه يتبعني. التفـــت، أستدير فأراه بعيداً، ويبتعد أكثر حين يرى أني أراه، حتى يغيب تماماً.

أقـــف أمام المرآة أراقب صورتي بقلبٍ مثقل بالغضب، ها أنا أدخـــل الجامعـــة بلا حلم.. أقول لقدميّ تحركا فتتحركا، ثم أعود فأقسم ألا أدع شيئاً أي شيء يمحو ابتسامتي.. ابتسمي.

اتفقـــت مـــع شريفة وهند أن نتحلى بأخلاق العصر في تلك الجامعـــة القـــروية، قدرنا المحتوم، لن نخجل من محادثة الأولاد، فـــبعد أن فصلتنا عنهم سنوات الإعدادي والثانوي، بدا اجتماعنا بم ثانية مربكاً ومخيفاً بعض الشيء، لكننا اتفقنا ألا نخجل منهم لأنهم زملاؤنا.. مجرد زملاء.

نـــداري ضـــحكاتنا مـــن الولد الذي يتلو علينا أشعاره، حين نكتشـــف أنها منقولة من ديوان شاعر شهير، ولا نقسو على الولد الـــذي يســـتخف بكل ما حوله ولا يرى أملاً سوى الهجرة للبلاد البعـــيدة، ويحـــيرنا الولد الذي يرفض التحدث للبنات ثم يتعمد أن

t.me/qurssan

ينحشـــر بينهن بالطرقات الضيقة وعند مداخل الحجرات. ولمرات عديدة تحكى هند:

– خالـــي بقـــى له في أوروبا أكثر من عشر سنين، حكي لنا حاجات عن الستات والرجالة هناك.. أووه....

تهـــز أناملهـــا المتـــباعدة وتشفط قدراً من الهواء بين شفتيها المضـــمومتين، فـــتحدث صـــوتاً أو صفيراً معيباً فنضحك بخجل خاصة حين يقترب منا أحد الزملاء الجادين.

ذات مـــرة اقترب أحدهم مني، كان يبدو عليه أنه يعتبرني "لا أعرف لماذا" مختلفة عن الأخريات.

– نحـــتاجك النهاردة. نتعاون لنحرس حريتنا. حدثك زميلك حاملاً صوراً وأوراقاً لها عبق التاريخ ولون الألم.

– دول أطفال بحر البقر، ودول عمال أبو زعبل.

كـــان بنفسي عزوفاً عن رؤية الصور التي تنبش جرحاً قديماً بنفســـي، لكنـــي تضـــامنت لحمايـــة حقوقنا وأيضاً كي لا أحبط تصـــورات ذلـــك الزميل عني. "استجمعتِ شجاعتك تحدثين عميد الكلية الذي استرسل في لومكم وتحذيركم:

– الجامعـــة جامعتـــنا والـــورق هـــوَ كل معرضنا وزواره زملاؤنا. فين الغلط بقى؟ وأهم شيء إن كليتنا اسمها الحقوق."

تعوديـــن بعد أن هنأك زملاؤك على شجاعتك، تصفعين وجه الأرض بقدمـــيكِ: هي الحياة كر وكر. هيا.. خافني أيتها الأرض فإني آتية لأدهمكِ بخطواتي.

t.me/qurssan

تديريـــن آلـــة التسجيل لتُسمعك الأغاني التي تحبينها وتنادين الـــتوأم بعكـــس أســـمائهما بقصد إغاظتهما. يكاد ينفجر قلبك من الســـعادة لأنك لم تخذلي زملاءك، لم تخذلي نفسك في تصوراتها عـــنك، لم تخذلي منتصر. لكنك ستفعلينها فيما بعد، تؤجلين التفاهة والجبن للمحطة التالية.

تحـــت كل شعار تقف مجموعة من الفتيان في عمر الزهور، لـــتحرس أحلامها المعلقة فوق مجلات الحائط بسواعدها المشهرة وعـــيونها المتوثـــبة.. الحـــرية.. العدالـــة.. الوطن، سيختارونك لشـــجاعتك وحـــيادك، أنت المتعاطفة مع حقهم في الحلم. توافقين على أن تمثلي زملاءك في فرز أصوات الانتخابات الطلابية.

فـــي الصـــباح حـــتى المســـاء منكبة فوق البطاقات المطوية تسجلين النهوض الحقيقي لحلم زملائك، محاطة بموظفي الإدارة، مـــن الصـــباح كنـــت تشعرين أنهم يخبئون شيئاً لك، ثم تتجاهلين مخـــاوفك، ترينهم يدورون حولك بصخبهم وحججهم الواهية كأنما لإحـــراجك أو لإخافـــتك، تتجاهلين مخاوفك، يتقدم الليل، يبدؤون حديـــثاً ســـخيفاً في البدء ثم مخيفاً.. يتقدم الليل.. وهاأنت تجرين أذيـــال خيبـــتك وتغادرين.. قبل أن يتم ما قضيت الوقت الطويل لأجلـــه، مـــا طُلب منك ووعدت، أنت وعدت ثم تخاذلت، فدققت مسماراً جديداً في نعش خلاصك.

* * *

t.me/qurssan

مختبئة تحت سريرك، صغيرة ومتكورة على نفسك، خائفة.. بـل مذعـورة، نباح الكلاب يفيض من أذنيك ليملأ العالم حولك. كـلابٌ للتسلية، كلاب للحراسة وكلاب للتعذيب. ثم كلاب تتعذب بضلالها في العراء وحيدة.

وحدهـا الكـلاب تشتم رائحة الخوف وتتعرف الخائفين، من الخـوف تستمد قوتها وشجاعتها، تنبح، تكبر وتعرف كيف لا تنام الليل، فيخافها العابرون في التواءات الطرق المظلمة، والمختبئون تحت أسرتهم يكتمون أنفاسهم.

مـا الـذي صـم أذنيك عن كل صوت سوى نباح الكلاب؟ كيف لم تسمعي صوت أحلامك وأحلام رفاقك في الخلاص؟

- بنت ولا عشر رجالة.

وصـفك زميلك يوم دفعت بمرفقك السائق الذي حاول منعكم مـن الـنزول قـبل أن تدفعـوا له ضعف الأجرة، مستغلاً حداثة أعماركم وقوة ساعده، وحدة صوته، ثم تراجع للوراء حين هزمته جرأتك ونظرتك الغاضبة.

- قلبها حديد.

قالوهـا عـنك يـوم رددت شجرة الجميز صدى الصرخات المذعورة لأقرانك الصغار:

- في حجرك ثعبان.

فـردت سـاقيك المقرفصتين ببطء، ثم نهضت تنفضين ثوبك المـنفوش فأسـقط علـى الأرض ثعباناً، لم تحتمل رأسه الصغير صفعات قدميك الحانقتين.

t.me/qurssan

ذكــرى شاحبة لقلبٍ جسور، سرعان ما تخبو تحت ركامٍ من الخوف ينسدل أمام عينيكِ ضباباً يحجب الرؤية. ماذا حدث؟ كانت لحظــة من اختلال الزمن.. كثيفة ومشوشة، حيث توقفتِ عن أن تكوني أي شيء متسائلة:

– لمــاذا أنا هنا؟ تنظرين تحت قدميكِ ولا أرض تحتكِ. ربما أخافــتك العــيون الكبــيرة المتذبذبة بكل اتجاه، العيون التي تدمن الــتطلع مــن خلف الستائر أو من فتحات النوافذ، تراقب الذاهب والغادي كي تبدأ لاحقاً ثرثرتها وبخ سمها في الآذان.

ربمــا أخافــتك الريح التي كانت ترسم لوجهك في كل مرة ملامح غريبة لتجعلك تفقدين التعرف لنفسك وتسلبكِ عيونك.

ربما أخافتك القدمان اللتان كانتا تلاحقانك في الظلام بنظراتٍ جارحة، وعندما اقتربتا منك جريتِ، وحين فتحتِ فمك لتصرخي لم يسعفك لسانك.

ربما أخافتك الصور بصفحة الحوادث في الجريدة اليومية، أو الحكايــا التــي لا يملونها عن المرأة التي قطعوا ذراعها ليسرقوا أســاورها الذهبية، والبنت التي فتك بها ثلاثة من الذئاب البشرية. وتنسين.. تنسين جرأتك التي تخدعين بها براءة فرح:

– هــناك من ينامون في العراء وحيدين، ورغم ذلك يمتلكون المقدرة لحماية أنفسهم، وأحلامهم.

الآن تعرفيــن خوفك.. تعرفين أن الدم الذي تجمد بعروقك لم يكن سوى صورة وهمية للحياة.

t.me/qurssan

أيــن ذهــب عنادك؟ أين شجاعتك؟ أين أنت؟ شجاعتك التي كانــت تتشــكل في ملامح جريئة غاضبة كأنما لتزيح خوفاً أبعد وأعمق من كل تصوراتك عن نفسك لم تكن سوى تظاهر، لم تكن ســوى خدعــة، تدقين الأرض بقدميك لكي يتفجر مجدك؟ أم لكي يتبدد خوفك؟

أكانت حقاً تترصدك في الظلام تلك المخاوف؟ أم هو صوت مريب مبهم كان يعشش داخلك؟

كــان لابد أن تقلبي عينيك نحو دواخلك لكي تري كل شيء، لكنك لم تفعلي ذلك إلا بعد ما يقرب من عقد من الزمان.

* * *

t.me/qurssan

تــزحف البرودة تدريجياً.. ناعمة وخبيثة لتسكن كل الأشياء وكــل فــراغات الأشــياء، أحس تيبس أطرافي، أحس بها تتشيأ، تصــبح محــض أطراف متيبسة، محض ذراع، محض قدم، تفقد صلتها بي، فأستغربها وأتوه في فضاء روحي.

خواتــم أمي الذهبية يحدث احتكاكها رنيناً خافتاً ريثما تفرك يديهــا الباردتيــن قبل أن يقبل أخواي يديها ونتحلق حول الطعام، يفتح أبي كتاباً ويشير إلى خريطة، فيهمس أحد أخوي للآخر:

– الحصــة بدأت. بصوت لن يسمعه ذلك المنهمك في وصفه لبحيرة ضخمة غطت منخفض الفيوم بمياه الفيضان، قبل تشييد سد يــرد المــياه للنيل في فصل التحاريق، مسترداً من المياه عشرات آلاف الأفدنــة، التي جعلت من المنخفض واحة خضراء ستتوقف عــندها أوتوبيســات رحلات مدارس لا يعرف تلاميذها إلا القليل عــن ويلات القحط ومعاناة المصريين التي غيمت ملامح الرجل الــذي عكــف مع مهندسيه قبل أربعة آلاف عام على تشييد أعظم مشروع للري عرفه التاريخ حتى ذلك الحين.

فــي بعض المرات تثير حكاياته شغفي الذي كنت أتظاهر به في كل المرات مفعمة بأمل أن يدرك كم أحبه وأحتاجه، فألقى منه الحــنان نفســه الذي كان يغمرني به حين كنت صغيرة.. صغيرة جــداً، قــبل أن أكره نموي وتضاريس جسمي التي حرمتني من حضنه الآمن، وقبلاته الدافئة منذ صار يخجل من ملامستي كأني غريــبة عــنه. أما أخواي فلا يحاول إخفاء السأم من ملامحهما. يخــرق أذني صرير أسنانه بينما يشيح بعينيه بعيداً، قبل أن يحمل

t.me/qurssan

غـيظه مع خطواته الزاحفة إلى غرفته ويدفع الباب. وخلف الباب ستبقى نقوشاً على البردي وصوراً للوجه الغائم الذي أنهكته الهموم تناوش أبي كلما تذكر تقطيبة وجه جدي.

شهية أخويّ عنيدة باسلة، وربما كانت هي الشيء الوحيد الذي ورثاه عن جدتي، إذ ما أبعد نبلها وكرمها عن سخافتهما وأنانيتهما. محال أن يبقيا بعدهما طعاماً، كأن الإحساس بالشبع والامتلاء غريبٌ عنهما كلياً، لذا واصلاً النمو طولاً وعرضاً، لأبعد من المتوقع بكثير.

تبتلع أمي طعامها ببطء مأخوذة بالحديث المتشظي بالمفاجآت.. يحكي أحدهما وهو يتصفح الجريدة عن سوء خلق الناس وضعف إيمانهم مقارنة بأحوال الناس زمان. بعد عدة جولات خسرتها قررت ألا أستنفذ نفسي في نقاش لا يجدي، وبفتور بالغ أترك لهما الحلبة طوعاً. يتحدث الآخر عن المستقبل والأيام التالية. تدهشني في تلك اللحظة لمعة عينيّ أمي وتوترها أمام مفردات عالية الجرس كالمشاريع والمكاسب. أرى بعينيها حلماً سابحاً يقترب، أحس عظامها ترتجف وفكها تتباطأ حركته، تعلق آمالها على رجليها الجديدين بعد خيبة أملها في قدر رجلها المغمور في الوهم "على حد قولها". قبل أن ننهض يكونا قد حبكا مؤامرتهما بدغدغة أطماعها بقصورٍ من ورق واستدراجها شيئاً فشيئاً حتى يتمكنا من ابتزازها لتعطيهما أكثر من المصروف المتفق عليه.. خصلة لم أكتسبها أبداً.

t.me/qurssan

- صـــريحة زيادة عن اللزوم وكلامك دايماً ناشف. لا أظن تلـك المقولـــة لأمي أنصفتني تماماً، بالفعل لم أكن يوماً متحذلقة كـــأخوي لأبـــتزها، لكني أيضاً لم أبح بكل ما كنت أفكر به.. إنها طيات بلا نهاية من الكتمان داخلي، من الأفضل لأمي ألا تعرفها. أبتســـم بـــبزود حين يخرج لي لسانه، رافعاً حاجبيه، ودافعاً رأسه للـــوراء، ذلك الذي صرت أميزه عن الآخر بمشاكساته المضحكة معي.

صورتهم أمام كاميرا عيني تبعد.. تبعد وتصغر حتى لا أعود أراهم.. كأنهم محض نقطة في الأفق الشاسع، كأنهم لا شيء على الإطلاق، فيما تكون روحي معلقة على الباب المغلق...

أتوســـل حكمـــتك وقدرتك.. انهض.. ربما تعود إليك نفسك، ربمـــا تبعـــث الآن، انهض يا أبي فإن فيض النيل، تبتلعه الأرض بعـــيداً في أغوارها السحيقة ويبقى الجدب قدرنا، انهض فإني أكبر ولا قمر حولي، أنت لا تعرف ما يعني أن أتغير.. أن يتغير العالم دون أن أجدك جواري، إني خائفة، وأخاف أكثر حين أرى أخويَ يحـــبان المـــال ويكرهان الغناء، وأمي هي الأخرى نسيت في ليل الهجـــرة ثوبها البحري الذي كان يقرب عيوننا حولها.. فماذا تبقى لنا؟

كمـــا كان غائباً في ترحاله، صار غائباً في غيابه.. يدور في أرجاء الغرف الخاوية ثم يرتفع صوته بالسؤال محملقاً بأمي:

- أمـــال القـــبلة فيـــن؟ ويستبقى نظرته الشاردة نحو السماء منتظراً للجواب.

t.me/qurssan

بـــنى أحد الفراعنة القدامى معبداً متشابه الحجرات والأبواب لـــيوقع بأعدائه إذا ما حاولوا إيذاء حياته الأخرى، فيتوهموا التقدم فـــيما تكـــون خطواتهم واقعة في أسر الممرات المعقدة والمسالك الملتوية، أما أنت فقد أسلمت نفسك للتيه دون مجد يذكرك.

يـــوم واحد ممطر يحيل ساحة الجامعة الترابية إلى مستنقعات صغيرة متجاورة، تغوص بها الأقدام ثم تخرج بتثاقل، وتنغرز بها إطارات السيارات التي أخذت تغزو سكوننا، يقودها أثرياء الطلبة، بعدما كانت حكراً على الأساتذة وحدهم.

يـــبدو حـــذاء هند البووت الأسود الطويل في الصورة حيث كانـــت تقف على يميني، متمماً لأناقتها المتميزة في فصل المطر وثقـــتها بنفســـها التي تبدأ عادة من أعلى، ليس من قبعتها الجريئة أوروبـــية الطـــراز، إنمـــا من تلك الابتسامة الملغزة المثيرة التي ســـتظل تمـــيزها طويلاً، الابتسامة التي طالما تمنيت لو كانت لي مثلها. إغماضة عين شريفة التي تحيط بي من الجهة الأخرى، هى رد فعـــل تلقائـــي كان يفاجئها مع الفلاش المضيء ويسبب خجلها وإحراجها كاشفاً أيضاً عن طبائعها الريفية الطيبة. أما البنت التي تـــبدو رأســـها فـــوق رأسي تماماً وهي تقف ورائي مباشرة لأنها أطـــول مني، فهي زميلتي التي لم تحبني ولم أحبها ولم أعد أتذكر اسمها.

– أنـــت محظوظة لأنه سامحك، أكيد لك عنده وضع خاص.

ذلـــك ما قالته لي بملامحها المحنطة وصوتها الخبيث بعدما رأت

t.me/qurssan

سامح الأستاذ معي عندما تأخرت عن موعد المحاضرة متعمدة ان تدير رأسها يميناً ويساراً ليسمعها من يصله صوتها.

لمرات عديدة كنت أحس بتلك البنت تقف ورائي مباشرة، تجذب شعرة واحدة من شعري المتهدل فوق ظهري، شعرة واحدة طويلة كان نزعها يحدث وخزاً بفروة رأسي وثقباً بروحي، ألتفت نحوها فتعبرني دون أن تنظر نحوي، تعبرني دون أن يحرقها غضبي، لمرات عديدة أقسم أن أصفعها ولا أفعل. هذه المرة أيضاً احتملت كلامها الجارح دون أن يتحرك لساني، أخذ صوتها يناى.. يناى ويخفت.

تقتلني الرتابة.. الأيام المتشابهة لا تحسب إلا يوماً واحداً ثقيلاً، لأنه يضعنا وجهاً لوجه أمام أيدينا العاجزة عن تغيير الألوان في الصورة الكابية. في الرتابة يسود لون واحد.. لون الرماد. وتصبح الأيام محض تكرارات بائسة للصورة.. بل لنيجاتيف الصورة الغائبة.. الحياة الحقيقية. أحس تشابه الأيام داخلي كدغل من الأشجار المتشابكة، يتعفن داخله نبع الماء الرقراق، وأخشى أن أتعفن في الرتابة.

ظننت أني استعدت دفء الأيام، ظننت الحياة قادرة على أن تمنحني بهاءها مجدداً، حين فاجأتني عينٌ سحرية.. أتي نادر كمنحة ربانية.

بدا متجهماً قليل الكلام، له عينان صغيرتان ثاقبتان، وذراعان مربعتان ينسى بالأيام أن يفردهما، لذا شعرت في لقاءاتنا الأولى أنه خذلني، خذل الصورة التي رسمها خيالي بشاعرية مفرطة

t.me/qurssan

لـــبطل، كانـــت الهـــوة شاسعة بين ما كنت أتخيله عنه منذ رأيت الصـــور والأشـــعار المعلقـــة على جدران غرفته الصغيرة، منذ شـــربت الشـــاي من يد أمه الملتاعة لغيابه وبين ذلك الواقف في صمت وعبوس يتأمل ما يحدث حوله، لذا تباعد عن موضع الحب فـــي نفســـي، وبقـــى صـــديقاً طيباً، لصداقته عبير الأيام الجميلة الغائـــبة.. أيام جدتي ومنتصر، وربما كان ذلك مصدر فرادة هذه الصداقة.

كنت واهمة حين ظننت أن بإمكاني استعادة منتصر في نادر، لم يكن نادر إلا نفسه، لا أتذكر أني سمعته يوماً يضحك أو يثرثر مثلـــنا، لذا التصقت الكلمات بلساني، ولم أحدثه عن الشاب الذي له تضـــاريس وجه عاش ألف عام.. في جبينه تشققات الأرض وفي عينيه أغوار البحر، ولأنفه كبرياء محارب.

كنـــت أســـميه حباً.. ما كان يجذبني نحو الكثيرين الذين خُيل إلـــيّ أني أحببتهم، لكني فقط في تلك اللحظة عرفت حبي الأول.. أو هكذا ظننت.

عن أي شيء أحدثك يا نادر، أنت مثل شريفة وهند، مثل كل الـــناس لـــن تفهمني، فلا شيء على الإطلاق يمكن قصه، لا كلمة ولا إشـــارة. إنها فقط ذكرى شفيفة لملامح لم أعد أتذكر صاحبها، لشـــخصٍ لم أعرف اسمه بعد. لو كان معي منتصر.. الوحيد الذي يفهمني.

* * *

t.me/qurssan

هــل كانــت أمي تعني ذلك حقاً حين خبطت صدرها بإحدى كفيها ومدت الأخرى تتحسس أقرب مقعد لتتهاوى فوقه مصعوقة؟ انفلــت مــن يدها الرسالة التي اكتشفتها مصادفة بين كتبي وهي تصيح: يا ريتنا ما سافرنا. يا ريتنا ما روحنا ولا جينا.

لــو كانــت تعنــي ذلك حقاً لما اختارت نزهتها المفضلة في أمســيات الجمعة إلى شارع الصاغة.. تهف بطرحتها الفضفاضة وثوبها السخي، مزهوة ببهرجة حليها اللامعة وجلجلتها اللافتة قبل أن تقــف مشــدوهة أمام الفتارين اللامعة من بريق اللون أو ثقل القــيمة، تــتفرج بشــغف على الأرفف الزجاجية المكتظة بأشكال وأوزان الحليّ اللامعة، تقارنها بما لديها، ثم تدخل المحال لتجادل الــتجار.. تشتري الجديد وفقاً لصيحات الموضة أو تُثمن ما لديها لتغيره كل حين.

الذيــن يعرفون أمي، أمي التي تتعالى على جاراتها، تتعالى على الكلمات، فتتكلم بحساب وتتحكم في مخارج الحروف بمنتهى الدقــة، وتســيطر علــى خروج نبرة الصوت من حنجرتها بضم شــفتيها قــدر الإمكان، سيندهشون حين يرونها تصبح سوقية جداً ومتهافــتة تماماً في الحضور الآسر للذهب.. وفيما تكون مركزة بصــرها تــتعرف العيار والقيمة بنظرة خبيرة وترطن مع نسوة غريبة المظهر أمام الفتارين بشكل يتناقض مع كبريائها المعهود، يكــون وجهها آخذاً في الاصفرار، إنه انعكاس البريق.. اصفرار التعلق المرضي والرغبة المحتدمة.

لماذا أستغرب أمي وتستغربني كأن افتراقنا دام دهراً؟

t.me/qurssan

أراها تبدل أقراطها أمام المرآة وتطوق معصمها بثعبان ذهبي مشـــابه لذلـــك الذي اضطرت للتخلي عنه في عام الدودة ثم تفرد فـــوق نحـــرها العقود الثقيلة بخفة ومحبة فأنتبه: كلما زاد التباعد بيـــنها وبين أبي زاد شغفها بالذهب.. شره للثروة أم افتقاد للأمان؟ أم أنه إغواء البريق المتفرد للمعدن الذي سيبقى مقدراً له للأبد أن يعكس ألق الشمس ويحجب رؤية أي شيء سواه.

بعد عدة رسائل يقل عددها عن أصابع اليد ولقاءات أقل منها عدداً، اكتشفت أني لم أحب الرجل الصغير، الفتى الذي اصطدمت به في أسرع حادث في تاريخي يمكن أن يحمل مثل تلك العواقب الوخيمة.

كعادتـــي وصـــلت مـــتأخرة على المحاضرة، صعدت الدرج بســـرعتي القصـــوى فيما كان هابطاً بسرعته القصوى، انحرفت لأتفاداه، فكان قد فعل نفس الشيء، فاصطدمنا وقبل أن يرى أحدنا الآخـــر تـــراجع معـــتذراً بتأتأة غير مفهومة وهو يرتجف. لحظة قصـــيرة اقتحمت قلبينا معاً حين أخذت أحملق في جغرافية وجهه مـــأخوذة برجولـــته الورعـــة التي ظلت تحوم حولي بينما تسللت صورتي لتسكن قلبه.. "ذلك ما أخبرني به في رسالته الأولى".

صرت أدير رأسي بأروقة الجامعة حتى أجد عينيه مسلطتين عليّ قبل أن ينضم لمجموعتي لتسنح لنا فرصة التقارب.

عززت صورة فتاي بمخيلتي حكايات زملائنا عنه. أخبروني أنه ابن مليونير ممن لا تخطئ الذاكرة أسماءهم الرنانة، ابن زاهد

t.me/qurssan

بمـــال أبـــيه، رفض ما قُدم له مفضلاً الاعتماد على نفسه ليعيش هراً، صورة أشبعت توق خيالي للتمرد والجموح.

لكنه فيما بعد أتي مجهزاً بكل الأسلحة التي ستنقلب ضده بعد بعـــض الوقـــت، ثـــياب على أحدث طراز وعطر يعلن عن نفسه لأمـــتار عديـــدة. الأهم أنه أتى بنفسٍ منكمشة على نفسها، عصية علـــى المـــنح والانفتاح، كان شحيحاً في عطائه من ذاته وحكاياته حتى عن نفسه، فأدركت أنه لم يحبني.

وهـــمٌ جميل استمر فقط لبضع شهور.. فصل دراسي انقضى قـــبل أن يختفي من كنت أسميه "الرجل الصغير". اختفت الرسائل الحـــارة التـــي كانت المبرر الوحيد للقاءات فاترة لا معنى لها، لا نحوي سوى الصمت الذي يفترش المقعد بيننا.

كنـــت أظـــن فـــتاي مسكوناً مثلي بالأشباح، بما علموه عن الصـــواب والخطـــأ، بما أدخلوه برأسه، كنت أظن ارتباكه لحظة تلتقـــي أعيننا هو من قبيل الخجل الذي يتهاوى حتى يتلاشى تماماً حيـــن تـــتملكه شجاعة الكتابة، واستبعدت الظنون الأخرى، كنت أخاف نفسي حين اسمعها توسوس لي: ماذا لو كان مخادعاً؟ لو لم يكن يخادعك فربما يخادع نفسه. لكني استبعدت شكوكي على أمل أننا مادمنا معاً سنصبح ذات يوم قادرين على تخطي محنة الخجل أو أية محنة أخرى.

وحدهـــا الكلمـــات المكتوبة هي التي أطالت عمر ذلك الوهم، كنت كأني أنتظر لحظة ما، إشارة يمكن أن تتجلى أمامي بالسماء التـــي شاركتنا صمتنا طويلاً، كي أحس انفلات مشاعره تجاهي،

t.me/qurssan

كـــي أوقـــن أن الحـــب الذي انتظرته طويلاً سيفتك به، لكنه بقي شـــارداً ومهمومـــاً لا يرغب أن أشاركه معاناته، كان ذلك قبل أن يختار اعتزال الناس والحياة ليتعبد في أثير أزمنة بعيدة.

كان متعنتاً ويزداد تعنتاً كل يوم. إذا ناقش زميلاً استمات في التشبث برأيه الحاد دائماً إما بالتأييد التام وإما بالرفض التام منقلبا بالـــنقاش إلـــى شـــجار، ســـريع الغضـــب، متحسباً من الآخرين باعتـــبارهم لا يقصـــدون ســـوى ازدرائـــه مبرراً تحفزه المسبق للانقضـــاض على من يخالف رأيه. في لحظات صمته كنت أشعر بالشفقة والخوف عليه من غابة الأفكار الداكنة التي تفتك بروحه، كان محتشداً بكراهية غامضة لم تترك للحب مكاناً بقلبه. ذلك كل شيء.

لو كانت أمي تعني ذلك حقاً لما اصفرت عيناها حين عرفت بـــثراء أبيه، ربما كانت تخشى أن تزج بي طبيعتي العاطفية نحو حـــب فقير يشقيني، هكذا كانت ترى الأمور بعد المحنة التي ألمت بنا من الخوف والعوز إثر النكسة.

أخـــبرها عمي الصغير أنه أحد أولئك المليونيرات الذين طفوا فـــي تلـــك الحقبة فوق الناس والأحداث، أحد تلك الأسماء التي لا تسقط سهواً ولا تتجاهلها الجرائد والمجلات الأكثر شهرة.

زغردت عينا أمي وأخذت ترتب لي كيف أفاتحه بأمر خطبتنا ولم تهتم كثيراً لقلقي من انطوائه وانعزاله، لم تعرف كيف تملكني حدس النهاية.

t.me/qurssan

فرحـــتْ وأخرجت الحقائب التي ظلت مدفونة تحت السرائر منذ عودتهم وفتحتها أمامي فاكتشفتُ أنها ادخرت لي ما يكفي لعدة عـــرائس.. ملابـــس وأقمشة من كل الأنواع، أطباق من الخزف الصـــيني، وطقم فضية ومفارش وبطانية كورية، كانت أمي فرحة وهي تريني تلك الأشياء، كأنها ليست أمي، أو كأني لم أرها جيداً إلا في تلك اللحظة.

زيـــارات عمي الصغير لنا صارت متكررة بعد أن آلت إليه العناية بأرض جدي بعد مرض عمي الكبير الذي أكلت كبده دودة شـــريرة يقـــول أبي أنها قديمة في تاريخ الفلاح المصري، وتأتي أيضـــاً ثقـــيلة بالشـــكوى التـــي لا مناص منها من أعباء الجمعية والبنك. يبتسم أبي وهو يقول:

- الأحوال دلوقتي أفضل بكثير. وكذلك يبتسم عمي الصغير "الـــذي هـــو أجمل أخوته على الإطلاق، وأميزهم بجبينه الوضاء الممـــتد فـــوق ملامـــح منمنمة دقيقة ليلتئم نصفا وجهه المتطابقان تمامـــاً، علـــى خلاف كل الناس، في طابع حسن أخاذ" وهو يرد: "عمر التشفيط ما يملاش قرب".

عمي الصغير هو أول من استقبلنا على رأس الطريق المنشق بيـــن الحقـــول عـــندما حملتنا الشاحنة بعيداً عن نسيم البحر أيام الهجرة، وهو من صاح يحذرني عندما كنت مقرفصة تحت شجرة الجمـــيز لا أعلـــم أن الثعـــبان بحجري، وهو من أركبني الحمار أمامه، ليريني الحقول حين جذبني أبي ولطم وجهه.. ذي النصفين المتشابهين.

t.me/qurssan

عمي الصغير هو من سيفتك بقلب أبي بعد عدة سنوات..

جحظـــت عيناه وضغط أسنانه حتى خفت أن ينفجر عنقه، ثم ضـــرب ضـــفة الدولاب بكفه التي بدت أكبر من حقيقتها في تلك اللحظـــة وهو يصيح بوجه أمي التي سارعت بغلق الباب حتى لا يصلنا الصوت:

- أخويـــا اللي من دمي يغشني! يخليني أبيع الأرض بتراب الفلوس ويخبي عليّ إنها دخلت كردون المباني!

* * *

t.me/qurssan

"ها أنتِ تدخلين عقدكِ الثالث بقدمك اليمني.
لــو كنتِ تعلمين أن ولعلكِ به سينفض بعد لقاءات قليلة، لما همّت بنفسك لوماً على جموح مخيلتك لبعض الوقت".
حاولــت أن أحــبه فانتصبت بداخلي لافتة "ممنوع الاقتراب" التــي أحفظهــا عن ظهر قلب، "أعرف جيداً كيف تخفي حقيقتها وراء شعارات مضللة مثل "كلام الناس، ثورة الآباء"، أشياء رغم واقعيتها الحقيقية جداً، تبقى مضللة لأنكِ تعرفين أنكِ لم تتجاوزي بعد مخاوفك الداخلية لكي تتحسبي للمعوقات الأخرى من حولك، لم يكمن الوجد كافياً لدفعك للتقدم.
حاولــت أن أحــبه لكن يبدو أني لم أكن مهيأة للحب بعد. لذا ابتعد فــي مخيلتــي سريعاً عن موضع الحب، بقيت أطالبه فقط محاولــة أن أدفع بشفقتي حتى حدها الأقصى متمنية أن تصير حباً لكنــي اكتشــفت أن الحب لا يولد من أجناس شعورية أخرى. هو أيضــاً رفــض أن أتقاســم معــه معاناته، بدا لي أن التراوح بين المشــاعر المتأججة فوق فراغ الورق وتلك الخاملة حينما نتجاور فــوق المقعــد الخشــبي بــرواق الجامعــة، التراوح بين التدفق والانحســار كــان حــيلة نفسية لا أكثر لإزاحة قلقه الفعلي بخلق موضــوع جديــد للقلق، حيلة أتقنها في الغالب دون وعي، مثلما أتقنــت أنــا الأخرى لعبتي، بقيت عالقة مرة أخرى في انتظار أن تعبر الأزمة من تحت قدمي.
حيــن أدركت أن ما بيننا لم يكن حباً عجزت عن وضع نقطة النهاية بحسم، كما كان يجب، ولولا أن الأيام فعلت هذا نيابة عني

t.me/qurssan

لكنـــت مازلت شقية، رحت أغالي في تجاهله والاستهانة به وسط زملائي حتى يكف عن ملاحقتي. ذلك ما حدث.

"لـــم يكـــن بالنسبة لك سوى موضوع للفضول، ما أن أشبعه الاكتشاف حتى أدركت أن قلبه ليس مكانك، لم يكن أحدكما صادقا في مشاعره تجاه الآخر، فانكمشت سريعاً جذوة النار الوليدة حتى تلاشـــت. اقتســـام البؤس بين روحيكما هو كل ما تحقق بدلاً من اتحادهمـــا بفعل الحب، لذا افترقتما سريعاً دون أن يعرف أحدكما الآخر. كانت محكومة بالموت تلك المشاعر الزائفة".

* * *

t.me/qurssan

"التحقيق في انهيار عمارة من ثلاثة عشر طابقاً تسبب في مصرع ثلاثة أشخاص".

قبّلت بطنيّ كفيها ثم مسحت بهما وجهها ممتنة:

- الحمد لله ربنا أنقذك في الوقت المناسب. لم تعرف أمي أن حكايتي تلك انتهت قبل فترة، انتهت قبل أن تبدأ.

امتثل أمامي وجه طيب لثائر صغير. "رجل صغير" سيمر بعدة تحولات قبل أن تحتل صورته بعد عدة سنوات نفس موقع أبيه بنفس الصفحة، عرفته لعدة أيام فترك بنفسي ندبة غائرة.

كان غارقاً بمأساة لم أفهمها تماماً حتى في تلك اللحظة التي جعلتني أشعر بألمه وعذابه. هل كان فقده الثقة بأبيه هو ما أفقده كل شيء، ربما لو كانت حياته طبيعية لاتخذت قصتنا مساراً مختلفاً لكني لم أكن له أكثر من مَهرب، محطة هادئة لالتقاط الأنفاس في معركته ضد أبيه ثم ضد المجتمع كله فيما بعد، حاول فيها أن ينسى عذابه فأخفق.

طوى أخي الذي اعتاد مضاحكتي ومشاكستي الجريدة ثم طوحها فوق الكنبة وقال بفتور:

- بكرة يطلع منها زي الشعرة من العجين. ارتجفتُ واهتز كوب الشاي بيد أمي عندما رمي أخي الآخر تعليقه:

- النوع ده حله الوحيد هو الذبح.

- بس البلد فيها قانون.

كنت أعرف أن كلماتي لن تعني شيئاً لكني قلتها لأخي الذي كنت أظنه متقوقعاً في عالمه الخاص "الأكل، الرياضة ومواقيت

t.me/qurssan

الصلاة" ثم أدركت أنه يفهم جيداً عجائب بلدنا ويصوغ لها الحلول بطريقته الخاصة التي تختلف كثيراً عن طريقة نادر:

– عارفة الناس دول مستمرين ليه؟ لأن فيه قصور وثغرات في القانون. ارجعي لكتبك، شوفيها بعين ثانية.

كل يوم يدهشني نادر أكثر، أسميته العين السحرية لقدرة عينيه الصغيرتين على الرؤية الثاقبة ونبذ الأوهام.

عينه السحرية كانت بؤسه الحقيقي، بؤس المعرفة وشقا من يبصر، إذا اختلف اثنان يقول:

– دائماً فيه أخطاء تحتاج تصحيح. يغيظني أكثر مما يريحني، فالحقيقة تتشعب في عينيه السحريتين إلى حقائق أكثر وأصغر.. كان من الصعب عليّ في ذلك الوقت أن أفهمه بهذا الشكل، كنت مازلت أشعر أنه خذلني، لم أفهم أن من يرى أكثر يعرف كم من الصعوبة بمكان إطلاق الأحكام، ذلك في الغالب هو ما كان وراء عبوسه وإرهاقه الجليين.

تعاودني صورة منتصر في نومي.. أراه مربوطاً في أرجوحتي المنسية يصرخ، فأصرخ في الصباح بوجه نادر: لازم تجيب لي عنوانه. يحدق بي طويلاً بوجه يشبه الغيظ دون أن ينطق بكلمة واحدة.

مظهره المتغطرس كان يخفي قلباً عطوفاً مرهفاً، لا يؤخره شيء عن مساعدة من يحتاج المساعدة لذا احترمه الجميع.

أتفاجأ حين أرى ظلي على الأرض متاخماً لظله فأشعر أني قريبة منه أكثر مما ينبغي، أتراجع خطوة.. فيأتي ظل منتصر

t.me/qurssan

لـيلحم ظلينا، لنتحد ثلاثتنا في غواية المحبة، أتردد قبل أن أعدل عن أن أقول له: نفسي أشوفه.

يقربــنا منتصر فأرى البنت التي لم أحبها ولم تحبني ترمقني بنظرات نارية مخيفة على عكس نظراتها الحانية لنادر، فيداخلني الشعور بالتشفي.. "تألمي قليلاً، أن يؤلمك الحب خير لك ألف مرة مــن النوم بارتياح على جانب حقدك الذي توزعينه يميناً ويساراً. جربي الحب مرة".

– نادر.. البنت دي تحبك. ينتفض صوته:

– حـب إيــه؟ الحــب كلام فارغ. آه يا نادر.. أخيراً أراك تشـبهني فـــي شيء، بل تكرر نفس أكاذيبي، تخفي عينيك تحت نظـــارتك الداكنة كي لا نراك، لكني أراك. أعرف أن قلبك يخفق طويــلاً فـــي انــتظاره للحب الحقيقي مختبئاً تحت غلالة الجدية الشديدة في كل شيء.. الجدية المُعدية.

تظاهر نادر بمضاحكتي ليرمي بوجهي حجراً:

– مـــا لقيتيش غير ده تحبيه. لم أبادله الضحك فشعر بالذنب وحاول مصالحتي بكلمات رقيقة.

لأني أعرفه جيداً لم أغضب منه، أعرف أنه يصبح في بعض الأوقات ساخراً في كلامه، حاداً في آرائه، عصياً على الاستحواذ، حتى أن زملاءنا المثقفين اعتبروه ذاتياً غير ملتزم، ومغرماً بنفسه وعقلـــه دون شيء آخر. كنت أراه ناقداً فذاً حتى لذاته، كتوماً في بعض الأحيان، ذلك ما كان يغضبني منه.

إذا أتـــى أحدنـــا علـــى ذكر غيابه الذي أخره عن دُفعته عدة ســـنوات، تــتعرج جبهته ويزوغ بصره بملمح من الأسى للحظة

t.me/qurssan

قصيرة، ثم يستجمع رباطة جأشه ومبادرته كمصارع حين يحدثنا عن حلمه في دراسة علم المستقبل "الهندسة الوراثية"..

بإصبع الطباشير يرسم دوائر وحلزونات متقاطعة، ليبسط لنا العلـم الذي سيقضي على العوز والأمراض قبل نهاية القرن كما كـان يـأمل. ننصت له باهتمام مأسورين بشغفة المتزايد كل يوم وهو يترجم لنا الدوريات الأجنبية. لا يعلم أن أحداً منا لم يكن يفهم شيئاً مما يقوله.

ذات مرة اندفع في آماله فصاح فجأة دون أن يشرح تصوره بالسخاء اللازم:

– حتى الحروب، الهندسة الوراثية ستقضي عليها.

مـن كان أول من فطس من الضحك على هذا التعليق فجعلنا جميعاً نضحك؟ أظنه كان الزميل المتحمس الذي كنت أخشى دائماً أن أحبط تصوراته الإيجابية عني. في تلك اللحظة شعرت بغضب نادر عندما تجمد وجهه ثم استدار ليبتعد.

لـم يعطنـي الفرصة لأوضح له أن التوتر الذي جعلني عليه الإنصـات غير الاعتيادي والتركيز الشديد هو الذي جعلني مهيأة للضـحك لـدى سماع أية ضحكة. لم أضحك سخرية منه أو من العلـم الـذي سينذر له حياته، وأظن الشيء نفسه بالنسبة لأغلب الـزملاء، كانـت غـرابة العـبارة ومفاجأتها هي التي أضحكت زميلنا.. ذلك ما وضحه معتذراً فيما بعد.

فـي داخلـي كنت أكره انسحابه، لكنه سواء بسبب تكبره أم اغـترابه سيكرر نفس الموقف مرات عديدة، كان الارتداد للكتب

t.me/qurssan

، اا ـدأب علـــى تحصيل العلم هو أسلوبه الوحيد للمواجهة، وربما الهرب.

لـــم يكن يفهم المزاح، كان جاداً إلى حد الغباء الذي لا يقارن ،، ذانـــه الدراســـي الذي أهله ليكون من أوائل دفعته، مرات كثيرة ،ىـ أستنكر موقفه:

- معقول تأخذ كل حاجة بجد!

ينظر لي مندهشاً ولا يعلق.

لـــم يكن هناك ما يضحكني أكثر من إيمانه المتطرف بالعلم، ، ـان ذلـــك ينعكس في ذهني صورة كاريكاتيرية لا تقابلها سوى ـــورة فـــرح بمـــنديلها "أبو أوية" تتهجى الحروف في الصحيفة وتقول:

- ياريت أبويا ماطلعني من المدرسة، العلم مهما كان سلاح.

لـــم أفهـــم حتى تلك اللحظة لماذا كانت تقترن صورتيهما بذهني، بالتأكـــيد ليس لتشابههما بل غالباً لتناقضهما المثير، قران لم يعقد حتى عندما التففنا ثلاثتنا حولها بعد سنوات طويلة.

هزتنـــي ففتحـــت عينـــي مندهشة كثيراً، وجلة شيئاً ما، أن يوقظنـــي أحـــد بهـــذه الطريقة، ثم أن تكون فرح.. قبل أن أحرك شفتي، انحنت حتى استندت بركبتيها على الأرض مكفهرة وباكية: أبويا قرأ فاتحتي على واحد أكبر منه.

كـــان العـــرق يشعرني بتمدد جسمي وتورم حنجرتي، وقلة حيلتي.

* * *

t.me/qurssan

"طلـتها البهـية أضاءت الشاشة.. عيون نبيلة دامعة، متكحلة بخطـوط كلـيوباترا، وإنْ بِـرقة تبـتعد كثيراً عن جمود الورق والجرانيـت، بحضـورها السخي وصوتها الشامخ راحت تحدث الشاب الذي تحبه:

- دلوقتي خلاص حدوداً مصيري وحرموني من التفكير في مسـتقبلي. وفي المشهد التالي لا ينقذها من الموت إلا وجه طيب يغطي صفحة النيل الذي هربت إليه".

يقـول أخـي وهـو يضـغط الزر ليشاهد المصارعة بالقناة الأخرى. أرد باستسلام:

- فيلم قديم لكنه يتكرر كل يوم.

هل كانت فرح صديقتي مثل شريفة وهند؟ لا أظن.

اعتدت أن ألقاها بدون كلمات الترحاب، أو قبلات الشوق التي كنـت ألـق بهـا صديقتيّ. لم نتقاسم يوماً الحديث عن الشبان، لم نتشـارك الأحلام، ولم نتبادل مجلات الأزياء ولا كلمات الأغاني الأجنبية المنزوعة من المجلات الفنية ذائعة الصيت كما الحال مع هند وشريفة.

ربـاط فـيه من الغرابة ما كنت أعلم أنه سيثير سخرية أمي وأخـوي لـو حدثتهم عنه، بل ربما يُستفزون مني متصورين أني أريـد أن أغير سُنة الحياة.. رباط يتداخل فيه التوق للعناد وبساطة المحـبة، لكـن محبتها كانت الأقوى بنفسي رغم وجودنا بموقعين متباينين في الحياة. مسألة بسيطة مازالت تثير دهشتي.

t.me/qurssan

الأفكار النظرية عن تغيير العالم لم تطرأ ببالي، كما يظن بي أهلي الذي لا يضحك إلا نادراً، كنت أحلم بعالم أكثر رأفة، وأكثر عدالة وإن بشكل غير مساواتي صارم، كنت فقط أراها تستحق حظاً أوفر في الحياة. كان ذلك ما جعلني أفكر في الصعود للدور الرابع..

لم أكن أحتاج حذقاً خاصاً لأعرف أنها كانت تحبه، الطالب الريفي الذي يستأجر مع مجموعة من زملائه غرفة صغيرة بسطح البيت، للضوء الشحيح بمدخل البيت لم يحجبها عني، رائحة الكسبرة الخضراء التي تلتصق بثيابها وبحة صوتها المميزة هي التي دلتني عليها، صعدت باتجاه باب شقتنا، فتحته وأغلقته دون أن أدخل، كتمت أنفاسي لأسترق السمع، كان حفيف هادئ لتلامس كفين أو وجهين، لا أدري سوى أنها كانت لحظة قصيرة، أقل من لحظة، سمعت بعدها خطواتها تبتعد، أما هو فقد لمحته حين عبرني صاعداً دون أن يلقي تحية. لم أحدثها بالأمر خشية إحراجها، لكني طوال الوقت كنت أرى الخجل يلون وجهها كلما أتيت على ذكره.

ماذا كنت أنتظر من فتى مازال يحبو عند عتبات الحياة؟ وكيف استدرجني أبي نحو منظوره لذاته كمخلص للعالم حين فكرت أن استنجد به لينقذها؟ ثم إنه رجل المهام الكبرى، فكيف يلتفت لهذه التفاهات؟

t.me/qurssan

مـــاذا كنـــت أنتظر من أبيها حين توجهت نحوه ثم خجلت أن أحدثه بأمر سيبدو مضحكاً، وربما مرعباً أيضاً لأب اقتنص لابنته أخيراً زوجاً وستراً من أربعة جدران، محققاً لها منتهى أحلامه.

لأني أعرفهم جيداً، لأنهم انتزعوا كثيراً من جرأة أفكاري، ثم أدخلـــوا كثيراً من أحجارهم برأسي، لم أفعل شيئاً على الإطلاق، بقـــى حزنـــي يراوح مكانه بنفسي كثيفاً وعاجزاً. وبقيت نظرتي مـــترددة على شرفة جارتنا، ساكنة البناية العالية، تلك المرأة التي لـــم يكـــف الـــناس عن الحكي عن رجال يدخلون ويخرجون من حياتها، تاركين وراءهم قصصاً وعجائب وأبناء، ولم يذكروا أنها كانـــت أول مـــن لبس البالطو الأبيض، على جانب صدره هلال أحمر، دون أن تخجل من ارتياد المحال التجارية والدكاكين، تجمع التـــبرعات لجـــرحى الجـــنود الذين عجزت المستشفى عن توفير علاجاتهم مشجعة كل نساء الحي على التحرك بعدها.

الذين حكوا كثيراً عن قلة احتشامها وغرائب طبائعها نسوا أن يذكـــروا أنهـــا كانـــت الوحيدة التي ساندت جيرانها سكان الدور الأرضي مسخرة لهم أفضل محاميَ البلد ليتصدى لمالك العقار في القضـــية التي رفعها لطردهم، محتملة الضغوط والمضايقات التي حاصـــرها بهـــا ذلـــك الأخير. الذين حكوا عنها أشياء وأشياء لم يعلمـــوا شيئاً عن الشريط الأسود الذي يحيط إطار صورة زوجها الـــذي خطف الموت بهاء شبابه ولا عن بقائها عاجزة عن أن تجد الحب أو الأمان بعده.

t.me/qurssan

وحدها فرح كانت تجعلني أراها بعين أخرى، تدفعني للتطلع نحوهـــا الآن بالـــرجاء، ويـــبقى التردد يسكنني بينما الغناء يعلو، ويعلـــو مقـــتحماً رأســـي. تغني فرح وتضحك كعادتها فيظنونها سعيدة:

جمّل يا جمّال عجباني جمالك.. أيوه
جمّل يا جمّال..
جايب لي يا أماي إسورة في إيده.. أيوه
فاكرني يا أماي من فضله عبيده.. أيوه

أمشي وأمشي.. منكسة الرأس، كأني قررت أن أقطع الأرض مشـــياً مستسلمة لامتداد الطريق وانحسار روحي، لكن قوة غريبة ستحملني للانعطاف إلى تلك الجهة عوضاً عن الأخرى، لم أدرك أنـــي كنت أحوم حول بيت نادر إلا حين لحق بي لاهثاً ومحمصاً تحـــت وطـــأة الحـــر، كأنه مدد خطواته ليلحق بي، كانت كلماتي متلعـــثمة، غـــير مفهومة، وبدا توتري كأنه تجاوزني وانتقل إليه فارتعشت يده وهو يضغط يدي محاولاً تطميني.

نقطـــة حمـــراء في بياض عينه اليسرى، عينه السحرية، هي التـــي تشـــبثت بها عيني حين كانت لجسده رائحة الأرض، غبار وعرق. كل من عرفتهم من الفتيان ميزتهم العطور المتشابهة التي تقبض الأوعية الدموية حتى لا تنزف مسام الشعيرات بذقونهم إثر الحلاقـــة، أمـــا هو فكان مغسولاً في تلك اللحظة من قدميه حتى رأســـه بعـــبق الرجولة الحقيقية، اقترب مني وقال بصوت هادئ: نطلع فوق ماما تعمل لنا شاي؟

t.me/qurssan

كنـــت أشـــعر بصدري يعلو ويهبط مع لهاث أنفاسه، اقترب أكثر.. خفت أن يصبح ملتصقاً بي أمام عيون المارة، خفت أنفاسه التـــي تســـللت لـــتدخل شـــهيقي و.. رائحة رجولته العارمة التي فاجأتنـــي فقط في تلك اللحظة. أشرت له برأسي رافضة دون أن أحـــرك شفتيَ، واستدرت لأقطع نفس الطريق.. وحدي. لم أتذكر فرح إلا عندما وجدت نفسي عند البيت، بعد أن ظل صدى صوته الحانق يرن بأذني طويلاً.. يخيفني ويضحكني بنفس الوقت:

- أنتِ حرة.

• • •

t.me/qurssan

ـاع الفوضوي لحركة الأقلام السريعة المتلهفة فوق
و الدبيب الخامل لخطوات المراقب المنتظمة في اللجنة
واسك، من بين جفنيك المتكاسلين رحت تضيقين حدقتيّ
ما يكفي لقراءة الأسئلة في الورقة الطويلة، فيما كان أنفك
مستميتاً يحاول ارتشاف قدر يسير من الهواء، كي لا
الإغماء كما حدث مع إحدى زميلاتك.

ـسين عشرات الأصوات التي تقتحم أذنيكِ لتتمكني من
ة الصحيحة، عشرات الصور تتزاحم.. تتصادم وتتقاطع
الورقة المنهكة بفراغها وانفجارك، لتطرح أسئلتها الخاصة،
عن الامتحان، والملحة أكثر..

أأنتِ الآن حرة؟

تحاولين أن تتبعي نصيحة سمعتِ أحد زملائك يُسدها لآخر:
عندما تكون إجابة السؤال بنعم أو لا، بدون تردد اجعل إجاباتك
ـا "نعم" ستحصل على درجة النجاح. لكن مزاجك المقلوب
سيتحايل ليجعلك تفعلين العكس.. تماماً، لتصبح كل إجاباتك: لا.

وستغرقين في الضحك وسط انهمار دموعك ورشفات أنفك
فيما بعد حين تتذكرين الأسئلة تحت ضوء مصباح مكتبك
الصغير، ستكتشفين أن إجاباتك كانت مضحكة، وأنك نفيت
التجريم عن أكثر الجرائم شيوعاً، وأنك ربما يكون لكِ رأيٌ
مخالف بتلك الأمور، وأن ذلك بحد ذاته يعتبر جريمة طبقاً للمادة
كذا.. من القانون كذا.. لسنة كذا.

t.me/qurssan

ســتفاجئين بنفسك تبررين فعلتك بارتباك، قد يتحول إلى ذعر يســتدعي ميكانــيزماً خاصاً في التبرير: آه.. التجمهر.. ربما لا يكون جريمة إذا كان من أجل اقتناص رغيف الخبز في الطوابير الطويلة.

تتراجعيــن كأنمــا لتدافعي عن نفسك بل كأنما لتدفعي عنك صــفعات ستشــعرين أنهــا تطــالك من كل جانب لتتحول اللعبة المضحكة إلى فيلم رعب أبدعته مخيلة ناقمة.

نقطــة من العرق تهبك ببطء فوق ظهرك، ورجة تهز كيانك وتجفف حلقك، فلا يفلح كوب الليمون البارد الذي ناولتك إياه أمك لإغاثــتك، لكنك بعد أن تهدئي تعاودين الضحك من خوفك مجدداً، حيــن تتذكريــن أن يد المصحح ستضع فوق ورقتك ورقة أخرى ذات ثقــوب معلومــة ليجدد الإجابات الصحيحة ويعطي الدرجة، دون أن يتحقق أبداً من طبيعة الإجابات أو من مغزاها.

كما الأسئلة يكون التصحيح، عملية ديناميكية عقيمة، لا مكان بهــا للــتحقق أو التأمل.. لحسن الحظ لن يُكتشف أمرك، ولسوء الحظ أنهم تمكنوا من إلغاء تفكيرنا بنفس ذلك النظام. فلا يسألوننا رأيــا أو اقتراحاً في أي امتحان، بل يحشروننا في زاوية الاختيار المحــددة جــداً والمخــتزلة جداً بنعم أو لا، مدعين أنه الأسلوب الأحدث للتعليم، إنهم لا يختبرون معرفتنا بل امتثالنا.

أ أنتِ حرة؟..

لكــن كلمــة واحدة، إشارة واحدة سوف تنقلك من صف إلى صــف، من الصواب إلى الخطأ، حماقة صغيرة، قد لا تتجاوز في

t.me/qurssan

..مهـا كـوب الشاي الذي دعاك إليه نادر بإمكانها أن تقذف بك .. صف البنات المهذبات إلى الصف الآخر.

أ أنتِ الآن حرة؟

كـل الذيـن علت أصواتهم من خلف المكاتب العتيقة أو من تحت الألويـة الخفاقـة بشـعارات صاخبة لتسألك رأيك كانوا سيعضون بعد أن تبدئي الكلام إذا جاء رأيك مغايراً. العيون التي صادر كلماتك وأنفاسك هي التي جعلتك تفرين من كل باب طرقته بحثاً عن الشفاء من علامات استفهام ترهق رأسك، العيون التي أخمدت حماسك للمعرفة وللمشاركة بهذا العالم هي نفسها عيون جارتك المتذبذبة بكل اتجاه تراقب الرائح والغادي من وراء ستارة نافذتها. عيون تشبه في توجسها وجمودها جبلاً من الثلج هي اتي سلمتك إلى التقوقع والانكماش.

مـزاجك المقلوب أوعز لك أن تقولي: لا. أن ترفضي، حتى لـو عـنى ذلك أن تلفي الحبل حول عنقك، أن ترسبي، أن تفقدي أصدقاءك، أن ينكل بك أخواك.

إذا كـان مـن الظلم أن ترفضي ما ترينه صواباً، فليس من العدل أن في شيء تقبلي ما ترينه خطأً.

أنتِ الآن حرة.. ولو لمرة واحدة.. ولو على الورق.

* * *

t.me/qurssan

لم تكن سوى حفنة من الأيام.. لكنها كانت أياماً عاصفة، وفي العاصفة تغيم الرؤية، يتشوش السمع ويتعذر التوقع.

حفنة من الكلمات.. مجرد كلمات هي التي أشعلت فتيل الفتنة بين طلبة الكلية، كلمات وشائعات تؤكد أنه لم يكن غريباً أن يكون السمع هو أول ما ينضج ويكتمل من حواس الوليد، فهل هو بالفعل آخر ما يفقده الموتى؟

الذيــن عاشوا قبل آلاف السنين كتبوا لنا فوق آثارهم البديعة أن العيــن نــافذة القلب، لذا اهتموا برسمها وبزينتها فسحقوا خام الجاليــنا الأسود لينتجوا منه الكحل الذي وضعوه في مرود سيبقى أساســياً في شوار العروس في كل العصور وفي كل كتب التاريخ لن يخجل عبد الله بن جعفر من نصح ابنته:

- عليكِ بالزينة واعلمي أن أزين الزينة الكحل.

ولكن في الخفاء تحدث أشياء، تتحرك الألسن، تتحرك الشفاه وعظام الفكين نحو الآذان لتسحق مشاعر الناس بلا رحمة، ويبقى ما يحدث أمام أعيننا غامضاً غير مبرر.

اصــطف الشــباب يــتربص الــبعض بالبعض.. نظرات، غمغمــات، وإيماءات تتهم فتيان وفتيات، كانت الكلمات الموجعة تســري ســريان الغرغرينا في الجسد المريض، رغم الأصوات المخفضة، رغم اليد التي تغطي الفم لتخفي حركة الشفتين.

تأمل نادر حركة الزملاء الغامضة ثم غاصت عيناه في الأفق البعــيد.. أخبرني أنه يرى اهتياج الريح.. إنها العاصفة، وحذرني

t.me/qurssan

مـــن انفجـــارٍ وشيك سيقلب كل الحقائق. غمر الحزن وجهه وهو يقول:

- عجزهم عن انتزاع حقوقهم أفقدهم الرؤية.

كلامـــه كان يدهشني ثم أندهش أكثر حين أكتشف أن رؤيته كانت صائبة...

لطـــم الولد وجه البنت ذات الثوب الشفاف، فامتصت الأرض سريعاً قطرة الدم التي سالت من الأذن الجريحة.

كان من الممكن أن يبرأ الجرح عبر قنوات الزمالة، والمودة وتعـــبر العاصفة بسلام، لكن من أرادوا أن يطعموا أسماك القرش أبـــوا عليـــنا ذلـــك، كنت أحس بحركة خبيثة لا مرئية بين بعض الطلبة وممثلي الإدارة.

فـــي الأيـــام التالـــية تصاعد التوتر.. الغضب ولّد مزيداً من الكره، الكره ولد العنف أيضاً.

كانـــت الريح تنثر الغبار في كل مكان، اصطف الزملاء في مجموعـــات تعادت لأجل السياسة، الأخلاق، وأيضاً لأجل الدين. ولـــو أخبروني أن شجاراً دار بين محبي "الجينز"، ورافضيه، أو بيـــن أصـــحاب الشوارب ومعدومي الشوارب لما اندهشت. فكل التوافه صار من الممكن تضخيمها وصياغة الأساطير حولها.

صـــرت مـــتهمة من كلتا صديقتيّ بالانحياز للأخرى.. ليليان كانـــت بإحدى المجموعات، وشريفة بمجموعة مقابلة، لأول مرة كنـــت مبتئسة تحت وطأة الشعور بظلم صديقتيّ وكثيرين غيرهم

t.me/qurssan

لـــي، فقـــط لأني لست معهم، فقط لأني كنت أحاول مع آخرين - بشهامة أدهشتني – كسر هذه الحلقة الجهنمية للعنف المجاني.

لأول مرة كنت أتساءل بالفعل لمَ لم أنضم لإحدى المجموعات فأمتلك على الأقل "أم على الأكثر" رضاء هذه المجموعة وشعورا مريحاً بالانتماء؟

من تلك التي كنتها في ذلك الوقت؟

لو استمر الشجار حول السعديين والعدليين لما جئت للحياة...

"بلـــغ صراخهما قلب الشارع وانفضت الجلسة وكادت الزيجة ألا تـــتم لـــولا تسرعهم بتوزيع دعوات العرس قبل الشجار بعدة أيام". ذلك ما حكت لي أمي.

يتناحر جداي تناحر الديكة كلما التقيا.. كانت خشيتي فقط من خســـران المصاصـــات المسكرة التي يشتريها لي جدي لأمي أو كـــيزان الذرة التي يحملها لي جدي الآخر. بعد أن سئما الصراخ عـــن العقـــد الثاني والثالث من القرن، تدرجا إلى الرابع والخامس "الملكـــية، الـــثورة"، قبل أن يتسلم أبناؤهما الوصايا على العقدين الأخيرين "عبد الناصر، السادات". وتختلف الأدوار والشعارات..

لـــم تكن تهمني في ذلك العمر المفاضلة بين حاكمين لا يعني أي منهما لي شيئاً، كان عبد الحليم حافظ مطربي المفضل، وكنت أفضـــل لمستقبلي أن أكون مضيفة طيران، لكني أدركت مبكراً أن نـــزاع جديّ وفروعهما كان خاوياً من المعنى ومخفياً لرغبة كل منهما في ازدراء الآخر.

t.me/qurssan

عرق ريفي وآخر مديني ظلا يتقاسمان دمي.. يتنازعان حيناً ، يستسلمان للهدوء أغلب الأحيان، كان لابد أن تكون هذه البلدة (مدتي "كنت أسميها عاهتي"، كانت شيئاً مختلطاً هجيناً لا هي قرية ، لا هي مدينة، لكنها قادرة تماماً على احتواء أبلغ التباينات، ماذا حدث الآن؟

زميلنا الذي أعد مجلة عن القتال الدائر بشوارع بيروت، خاف أن يناله عقاب إحدى المجموعات، أو يواجه بالفصل من الكلية، حمل أوراقه ورحل.

نسبة كبيرة من البنات رفضت المجيء للمحاضرات خوفاً من الاحتراق برشاشات الألسنة.. فكل الأسلحة كانت مشهرة، ضد كل الناس.

وكم كان سيصبح مثيراً السخرية أن أحكي لهم، عن القرابين التي أخبرني أبي أنها كانت تقدم إلى نميزيس وإيزيس معاً؟ وعن طوائف من الصناع الآسيويين كانوا يضيفون القصدير للنحاس لينتجوا البرونز ويصبون آنية من الفخار وهم يعيشون في أمان مع مصريين ينقشون الذهب والجعارين وينسجون الكتان ويبادلون الحبوب بحرائر مدهشة يحملها بحارة يونانيون في عباب البحر ثم يعودون ليحدثوا معلميهم عن معنى الخلود في زخائر البردي. كانوا سيعتبرونها أقوالاً للاستهلاك المحلي. كان لابد من طريق آخر يا أبي!

أين كان نادر في تلك الفترة؟

t.me/qurssan

بقى شاحبا وبارداً تحت المظلة البعيدة، وفيما كنت بحاجة إلى مساهمته في استخلاص بعض المعنى من كل تلك الفوضى كان غارقاً في يأسه:

– ما جدوى الدراسة وسهر الليل من أجل المستقبل إذا كنا سنفاجأ في الصباح بأكثر المشكلات بدائية وضراوة؟ لم يتحرك شبراً واحداً نحو زملائه وبدا كأنه يحاول أن يخفي عني عينيه!

أدركت في تلك اللحظة أن شيئاً لن يثني نادر عن عزمه تجنب التورط في ذلك النوع من المشاكل. وفكرت أيضاً بأن عينه السحرية لم تكن إلا عوينات طبية تقرأ الكتب ولا تقوى على مواجهة الحياة، أ لم تقل هند عنه يوماً "لا أتذكر إن كان قبل هذه الأحداث أم بعدها":

– لو كانت يد نادر طويلة زي لسانه كانت الدنيا بقت حاجة ثانية.

رغم عمق صداقتنا كان يأبى أن يحدثني عن معاناته القديمة التي ربما تكون قد علمته درساً من العسير نسيانه. آه يا نادر.. ماذا فعلوا بك؟

سكنت العاصفة بعد أن تلقف أفراد الإدارة – الذين أخفقوا في زعزعة جدار التقارب الذي صاغته المظالم المشتركة فأثلج صدورهم أن يروه ينهار من تلقاء ذاته – تلك الأحداث للتهديد والاقتصاص ممن يشاءون، تراوحت درجات العقاب بين الحرمان من دخول الامتحان إلى التهديد بالفصل من الكلية الذي وقع بالفعل

t.me/qurssan

فيما بعد لعدد قليل من الزملاء، لجملة من المسببات كانت وقائع هذه الفترة إحداها.

هكذا طالت الخسائر الجميع.. إلا هي..

شيء في نفسي أو عز لي بأنها كانت راء كل ما حدث، أكدته لي حركتها الدودية بين صفوف الطلبة وممثلي الإدارة مسلطة صوتها المتكتم تحت يدها على الآذان، كل ذلك زرع بنفسي كراهيتها، تبعتها من البوفيه إلى دورة المياه، فاجأتها بوقوفي خلفها تماماً كما كانت تفعل معي، وعندما شعرت بي، التفتت باتجاهي تنظر نحوي بخوف وتقسم أنهم ضغطوا عليها، تقسم أنها لم تخبرهم شيئاً عني، ضممت قبضتي وضربتها في بطنها.. ضربة واحدة، أظنها كانت مؤلمة.

استمع لحكايتي متجهماً، مسود الوجه، راح يتأمل الفوضى الحاصلة ثم صاح بتكبره اللعين:

- أكره الانحطاط. أعطاني ظهره، وبعد لحظة كان قد اختفى.

هجرتك النجوم الأليفة وداهمك الفجر دون نوم.. نسيت زملاءك وكل الدوافع التي حركتك خلال تلك الفترة، وتوقفت فقط عند عبارته، من كان يقصد بالانحطاط؟

سلوك المتشاحنين أم تلك المتآمرة أم.. فعلتك "أنت"؟

ستتسين الاحتماليين الأولين وتتشبثين بالثالث ربما لإدانتك لنفسك على تلك اللحظة.. تتأملين يداً ستبدو لك غريبة لكنها يدك: آه كيف فعلت ذلك؟ كيف طاوعتني يدي؟

t.me/qurssan

نعم.. الكره يولد الكره، فترحل المحبة.. والاحترام.

وسـيبرد كوب الشاي الذي طالما تمنيته من يد أمه، قبل أن تقربيه من فمك لأنك مشطورة بين شعورين مؤلمين.. الإهانة و.. الغيرة.

ولـن يتقوض إحساسك بالإهانة، حتى بعد اعتذاره لك وقسمه أنه كان يعني كل شيء.. "إلا أنت".

- نادر: أنت بتحب البنت دي؟

- لا. باحب بنت ثانية لكن للأسف هي تحب واحد غيري.

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أخطأته عينك السحرية. في العاصفة تغيب الحقيقة الواضحة وضوح الشمس.

* * *

t.me/qurssan

حيــن لا يكون معي.. لا أعرف أين أضع الرسم الذي أخطط لـــه وجهـــه بقلم الرصاص في دفتري، أين أضع صورته؟ أجدها بعـــيدة كـــل البعد عن صور كل من أحببتهم للحظات أو لأوقات طالـــت كثيراً أو قليلاً، بعيدة أيضاً عن مكانه منتصر الخصوصية والاستثنائية كأخ لي.

مـــثل نجدة مجهولة يهبط منتصر أمامي فجأة ليكبح اندفاعي الوشـــيك ويعيدنـــي في اللحظة المناسبة لخط الأمان.. أسأل عنه نـــادر، عن أي شيء يخصه، أي شيء يرد بذهني حسب اللحظة التـــي تجمعنا: عنوانه، أخباره، أو يرتفع صوتي فجأة: يا سلام لو منتصر معانا دلوقتي.

حيل يبدو لي أني كنت أبتدعها ليس لمراوغة نادر قدر ما هو لمـــراوغة ذاتـــي التي لم أكن أفهمها جيداً، لم أفهم لماذا كنت أراه غريـــباً تمـــتد أصـــابعه لتعبث في عقلي، فأرغب لحظةً أن أقتله، وأرغب في اللحظة التالية أن أقبله.

أعـــرف أنـــي لم أحب منتصر لأنه كان بمثابة أخي، أما أنت فحـــتى الآن لا أعـــرف ما نجاك من فورة أحلامي؟ ربما لجديتك المتطرفة التي كان من العسير أن يتقاسمها أحد معك..

أحفظ الكتب التي يختارها لي، لأناقشه فيها ليعرف أني لست بنتاً تافهة كما كنت أتخيله يظنني، فأسمع جدران المدرجات وبلاط الطـــرقات والأســـقف والـــنوافذ تضحك من ضياعنا في متاهات الحـــروف وفي اشتباكات الأفكار التي لا تنتهي.. كما كان منتصر يغالي في رقته فيغرقني في بخارٍ من الرفعة الإنسانية صار نادر

t.me/qurssan

يغالـــي فـــي جديـــته فأذهب لأبعد منه، حيث لا يمكنني أن أعود بسهولة، حتى استغرب وجهه حين يضحك كأنه شخص آخر.

نـــادر بـــالأخص صوت "لا أعرف متى بالتحديد" أخجل أن أصـــارحه بقصصـــي ومشـــاعري، خاصـــة ما يتعلق به منها.. تطاردني صورته فأحلم مرة أني أغسل ثيابه ومرة أخرى أراه في نومـــي محمومـــاً أكمد جسمه بالماء البارد، أراه أجمل كثيراً مما يـــبدو، أحـــلام تحـــوي لحظات اقتراب غير متعمدة، أصحو منها محملة بالشعور بالإثم متوجسة ومتحفظة في لقاءاتنا، أتجاهله أكثر من أي زميل آخر قبل أن أعود لطبيعتي معه.

كـــل لقـــاء كـــان محاولة اكتشاف. فبالإضافة لذهنه المتوقد، عقلانيـــته المنطقية، الحكيمة، والسخيفة أيضاً، لم يكن هنالك شيء ذو بـــال.. تســـتقر عيني مرة عند خط شاحب يحدد شفتيه، ومرة أخـــرى أضـــبط نفسي منتبهة لانتفاخ ركنيّ أنفه عند الغضب أو الانفعـــال، ثم يثيرني اخضرار ونفور أوردته بساعده الأيمن أكثر مما بالأيسر، كأني كنت أعد له صورة بداخلي أخشى أن تحيد عن حقيقته في شيء، كأني كنت أعيد تكوينه ليسكنني بعد رحيله.

* * *

t.me/qurssan

لا أعـرف ما ينتظرني في آخر الدنيا.. لكني أعرف البحر، اعـرف بنـتاً صـغيرة تنتظرني هناك ممددة بين الماء والهواء بشعرها الكبير المفرود كمروحة حول وجهها قبل أن يبدأ في النمو كفروع شجرة وارفة تنسل بعيداً عن جذعها ليغطي وجه البحر.

المـرة الأولى التي واجهتني فيها ظننت عشائي النهم هو ما ألقى بها مصادفة إلى حلمي ثقيلة، راقدة كأنها متخمة بأكلي، لكني لاحظت في تكرار زياراتها أنها زاهدة في اجتراح الماء.

أصحو تزخم أنفي رائحة البحر وتسكنني روح الرحيل.

حاولـت أن أدفع بتلك الصورة التي اعتادت أن تداهم نومي بعـيداً في أغوار نفسي كي أستعد لزيارة المدينة التي لفظتني ذات لـيلة. كانت إجازة قصيرة بعد انتهاء عبء الدراسة وأيام الجامعة التـي – رغـم أحزانها التي لا يمكن وصفها بأنها كانت بسيطة، ورغـم برودتها وعواصفها في بعض الأحيان – ليس بإمكان أحد أن يعرف ما كانته بالنسبة لي.

أمشـي فـوق رمال ناعمة.. يطرطشني الماء.. أشعر بنداوة قدمـيّ، وأبقـى متوجسـة من البحر الذي أعرف نواته ونزواته، أتطلـع بحسـد نحـو المغمورين في لجته بسعادة بدت لي بعيدة المنال.

لأنـي أعـرف الـبحر هوى وهاوية.. كنت أخشى أن أطيل النظر إليه.. أكنت أهرب من أن أقرأ في صفحاته ذكريات طفولة ظننـت أنـي غادرتها وغادرتني أخيراً بسلام؟ أم كنت أخشى أن أرى في انعكاس مياهه الشفيفة قلقي من أيام مجهولة سوف تأتي؟

t.me/qurssan

لا أعـــرف. ربما كنت أخشى أن أرى في وجهه بنتاً عاجزة عن اجتراح الماء تقول لي: أنا وحيدة.

الدخـــول إلى الماء كالولوج إلى مملكة الحب.. لابد أن يتهيأ المـــرء له، أن يـــتجرد مـــن كل شيء، أن يستسلم كلياً واستثنائيا للزخم الزاحف نحو القلب. ولم يكن ذلك بعد حالي.

رحـــل الولد الذي كنت أحبه في بعض الأحيان، وأكرهه في أحيانٍ أخرى.

مهمـــا يكـــبر نادر يظل بعيني ذلك الولد الذي عرفته قبل أن أراه، وأحببت لوعة الحب بعينيّ أمه حين نسيتني أمي.

خالـــي الـــذي يكبر أمي بعدة سنوات استقبلنا بحفاوة لا تُنسى وبفيض عاطفي مثير، عانق أمي بقوة ثم احتضنني برفق فارتجفت مـــن بـــرودة مفاجئة، إذ تملكني شعور بغرابته عني رغم أنه أخذ يدعوني مبتسماً: عروستنا الحلوة.

اكتشـــفت أثـــناء ضيافته الباذخة الكرم لنا ما كان يعنيه أخي حيـــن وصـــفه بأنه أحد أكبر عمالقة السوق.. كان مستورداً لكل شـــيء بدايـــة مـــن إبر الحياكة حتى الأثاثات والسيارات، ومالكاً لمجموعة من الشركات والمطاعم والفنادق الفاخرة، ومؤسساً لعدد مـــن الجمعيات الخيرية، كما حكى لأمي وهو يلتقط حبات الفشار بنهم ويقذفها بفمه أنه وضع الأساس لمصنع كبير لم يرَ النور بعد.

خالـــي الـــذي يكـــبر أمي بعدة سنوات ويدخن سيجاراً كوبياً ويطـــوق عـــنقه بـــربطات فرنسية ناعمة ويريح قدميه في حذاء إسباني، يعمل طوال النهار وجزء صغير من الليل ثم يعود لبيته..

t.me/qurssan

بـــأخذ حماماً بارداً ويرتدي ثياباً بسيطة ليلتقي بأصدقائه ومعجبيه في بورصة الحرية.. مقهى قديم نصف مضيء يفضل أن يحتسي فـيه الشـــاي وهو يدخن دخاناً رخيصاً مسترسلاً في الحكي عن مدينته الصغيرة التي دافعت عن البلد في كل الحروب.

المديـــنة القديمـــة التي حكت لي أمي عنها عندما توقفنا بعد مسير طويل نرقب السفن العابرة، كانت مقسمة كأن بخط مسطرة بيـــن الحـــي الإفرنجي، بأبنيته الأنيقة المنمقة الخطوط في فيللات وقنصـــليات وكنائس أثرية مدهشة تفصلها شوارع رائعة منتظمة لتشـــكل لوحـــة بالغة الإتقان، والآخر العربي بزحامه وارتجاليته وأغنياته الشعبية المنبعثة من بيوت واطئة قديمة تنتشر بينها قباب مساجد وكنائس صغيرة وجبانات واسعة.

"قبل مائة عام أتت جماعات من المتصوفة لتبقى قرب البحر، تتشـــد فـــي العشـــق الإلهي إنشاداً مازال حاضراً إلى الآن، لكن الذهنـــية الشـــعبية ستتناول تلك النصوص بالحذف والإضافة. كما بـــتعديل المقـــام الموسيقي ذاته تأثراً بفنون العصر وروح البحر لتـــبدع الأغانـــي فـــي كافة ألوان العشق جامعة كافة اللوعات في ضمة واحدة." تحكي زوجة خالي وهي تضحك وتغني مع عجوز مر بجوارنا:

سيدى وهجرني هجـــــره
سيدي وجرحني جرحـــــه
سيدي ولا كانشي عشمي
روح الله يســـــامحـــــك

t.me/qurssan

أشارت أمي بيدها بعيداً شيئاً ما وهي تحكي عن المدينة التي نهب فرحها القصف الذي أضاء ظلمة الليالي الهادئة.

لفــرط ما سمعت من تحولات سريعة للمدينة لم يعد يدهشني وجهها الجديد الذي ارتسم في أبنية شاهقة وشوارع لامعة، وثراء طبع كل شيء فيها حتى لغة الأطفال بمدينة لها عمر شيخ تجاوز القرن بقليل، أما في عمر المدن فلا تزال تحبو، دون أن تكف عن بعثرة أفكاري عنها..

حكايــات أمي وخالي لن تستثير ذاكرتي العنيدة التي اعتادت أن تفعــل بــي مــا تشــاء. آه من تلك الآلة العجيبة في انتقائيتها وتلاعــبها.. أ كانت تتآمر عليّ أم تتآمر معي حين لم تبقِ لي من ســنواتي الأولى هنا سوى نقطة محدودبة على نفسها، كأنها بؤرة مــتوهمة في مرآة لا تعكس سوى الضباب؟ لماذا لم تهبني مشاهد عريضــة مــتدفقة كمــا كنت أتوقع؟ كما كنت أخشى؟ هل نضب الذكــريات هو ما أتلفها؟ هو ما جعلها ذاكرة مطموسة؟ أم أن ثقل الأحداث القريبة هو الذي أعياها وأعياني معها؟

ألــوح بيدي للسفن الغريبة ولكل العابرين.. جدتي، منتصر، ونادر أيضاً.

أحــس أن لا ســبيل لــي لأبرأ من صورٍ وأحلام وتهويمات ورؤى تتآزر لتهاجمني، تعيدني لنفس المشهد من جديد..

مفاجــأة صوته عبر الهاتف أربكتني وبلبلت حواسي فتبعثرت الحــروف فوق لساني وخرجت كلماتي مبتسرة كأني مصابة بتأتأة مزمنة جعلت صوتي مضطرباً، مترهلاً ومثيراً لفضول أخي الذي

t.me/qurssan

.. يفوته أن يدرك ما أصاب روحي عندما دعاني نادر لكوب الشاي...

امتدت يدي لفستاني القرمزي، قديم غير مساير للموضة لكنه يبرز التفاصيل الأنثوية بهدوء، أمسكته ثم تركته، خجلت أن يراني به، أن يشعر بي كأنثى لها قلب ينبض، وبعد مفاوضات طويلة مع نفسي تركته واخترت الأزرق الفضفاض.

غبطتي رافقت خطواتي وملأت فضاء الغرفة بيني وبينه..

قال: لو أنك مرتبطة... قاطعته:

- لا، أبداً. لن يتكرر أن أرى مثل هذه السعادة وهذا الارتياح بملامحه، لن تتكرر أبداً هذه اللحظة. كان الكوب لا يزال دافئاً بيدي حين سمعته يقول:

- لو اشتغلت.. يعني لو استقريت في شغل، لو أخذت سكن.. سكن معقول، ولو كمان قدرت أحل مشاكلي مع بعض الناس ومع نفسي، لو حصل...

قاطعته: إيه كل أدوات الشرط دي؟ طيب يا سيدي لنفرض إنه حصل...

قاطعتنا أخته الصغيرة حين دخلت تقول تعبيراً مضحكاً، مد يده يمسد شعرها المتكاسل كأنه غير مبالٍ بانتظاري ثم قال أخيراً:

- لو كان ده حصل أبقى أقول لك.

الشيء الوحيد الذي تحدث عنه بوضوح هو السفر للقاهرة للبحث عن عمل. تحررت يدا نادر أخيراً وقرر أن يفعل شيئاً، كان يجب أن أفرح له، لكني كنت غاضبة، أحس أنه تلاعب بي،

t.me/qurssan

وحزينة لسفره.. شعرت بنفسي أهوي ولا أعرف كيف تركت الكوب على الطاولة قبل أن يفلت من يدي، كنت أشعر بتفكك لوصالي فنهضت لأغادر، اقترب مني يؤكد أنه لن يغيب طويلاً. حدقت به طويلاً.. ومن يعود يا نادر؟ من يعود؟ كنت أسأل نفسي عندما انتبهت لانتفاخ شفتيه وارتفاع ركنيّ أنفه بشكل غريب، كل شيء فيه كان يشي بالحب، ويقربني منه، لكن يداً جذبتني من ظهري وألصقتني بالحائط بعيداً عنه في الوقت الذي ابتعد فيه هو الآخر عني.

لماذا أبينا أن نمنح أنفسنا للحظة جنونٍ قصيراً بعمر قبلة. لماذا لم يجرؤ على مصارحتي بحبه؟ لماذا اختار من البداية أن يتركني فوق شفير الترقب؟

وماذا عني؟ أ لم أكن مثله جبانة ومترددة؟ لماذا لم أسأله ألا يسافر؟ هل كان مريحاً لي أن أتيقن من حبه بصمته أكثر مما لو تعلقت أثناء سفره باعتراف سيصبح مؤلماً بل وهمياً أكثر فأكثر مع الغياب؟

لماذا أبى ما بيننا أن يصبح قصة، أية قصة أو أي شيء؟

كأن ما أعيشه وهماً. وإلا فكيف اختفى الولدان اللذان كان من العسير عليّ أن أفكر بأحدهما دون الآخر كأنهما لم يوجدا؟

في المرات القليلة التي التقينا فيها أثناء إجازاته القصيرة أخبرني أنه لم يستقر في عمل بعد، لم يجد مسكناً مناسباً. يحكي كثيراً عن أشياء كثيرة، ولا يقول أحبك.

t.me/qurssan

عدة مرات يطلب أن ألقاه بالقاهرة فأرفض متذرعة بانشغالي بالعمل، المرة الأخيرة أبلغني بسفره للخارج: منحه دراسية من جامعة أوروبية لمدة عامين.

شتمته مائة مرة وشتمت نفسي ألف مرة، رسمت وجهه في صفحة بيضاء وأخذت أصفعه، أصفعه حتى مزقته ثم أحرقته وبكيت...

كنت أعرف أني سأفتقده كثيراً وسأبحث عنه، أعرف أنه غائب لكني أردت التشبث بملامح تشبهه، وجه أمه وأخوته فظللت أزورهم في غيابه.

أكان ساذجاً أم مخادعاً من قال أن في الدنيا عدل؟ من قال أن الحق لابد أن ينتصر في النهاية.. وما النهاية؟ لسنوات طويلة بقى أبي يلهث وراء "ماعت"، المرادفة الهيروغليفية للحق والعدل، التي ضاعت بعد عصر بناة الأهرام، فانتشر مجتمع فساد لم يكن من أمل في إصلاحه سوى بإعادة الاعتبار لقيم "ماعت"، لتحدث تعاليم حكماء ذلك العصر تأثيراً عميقاً فى الفكر العبراني بفلسطين، قاطعة المرحلة الأولى في انتقالها من مصر قبل أن تصل لتضيء بقية العالم.

من أين هبط أبي إلى رأسي الآن؟ وأين يلتقي بنادر؟ وأين يفترقا؟ لا أعرف. لكن رنين صوت نادر يعود لأنني من جديد، يقول بأسلوبه الواثق: مفيش نهاية. الصراع مستمر.

سفر نادر للخارج الذي حدث بسبب يأسه في الحصول على عمل مناسب – بعد أن ضاعت فرصته في التعيين كمعيد بسبب

t.me/qurssan

ملفـــه القديـــم، بســـبب بضـــع كلمـــات التصقت بآذان المسئولين بالجامعة، بضع كلمات سوف تصم حياته إلى الأبد – لم يكن الظلم الوحيد، ولم أكن أنا وحدي التي جمعت كتبها في خزانة واحدة كي لا تتهك قوى الجرذان في تلمس الطرق نحوها، خزانة شبيهة بتلك التـــي تخـــص أبي، فبعد أن فعلت شريفة مثلي خططت لمشروع تجـــاري توقعت أن تجني من ورائه أرباحاً لا بأس بها، وتوقعت أيضاً أن أشاركها ذلك العمل، لكني سأخيب رجاءها كعادتي معها، وكعادة هند بقيت عيناها على شاب ثري تقترن به، مرددة:

– أنا سقفي كده.

يـــوم اســـتلامنا الشهادات قضينا ساعات نتبارى في ارتفاع الضـــحكات مـــن أوراق مخـــتومة ومســـتقبل خاوٍ من المعنى.. فالمرارة الشائعة جداً والعمومية جداً تصبح سهلة البلع دون تذوقها بجدية، دون الانتباه لحقيقتها، على العكس.. تضحك.

ماذا سأفعل بحياتي؟ ماذا يمكنني أن أفعل بها؟ لا أعرف.

كأنهـــا عشرات السنين لا بضع سنوات هي التي باعدت بين الطموحـــات والخيارات الكثيرة التي كانت متاحة أمامي حين كنت صـــغيرة ثـــم انتهت يوم قدمت أوراقي بالجامعة، وبين الخيارات الجديـــدة التـــي تـــبدو أمامي بعد أن نلت الشهادة، فالجديدة ليست زاهـــية كالأولى، ليست مفعمة بالرجاء، فمن الحصول على زوج لائق وهو الخيار الذي يبقونه لصق كل فتاة، إلى العمل في مجال بعـــيد عـــن الدراسة مهما بدا ذلك نوعاً من التحامق، أما بلع النار الحقيقـــي فهو العمل طبقاً للتخصص، لأنه مهلك وغير مجدٍ، ومع

t.me/qurssan

... لم يعد متاحاً. ومع ذلك أيضاً لم أتوقف عن الحيرة والحلم.. ... البحر.

استاءت أمي حين أخبرتها برغبتي في شراء بعض الثياب الصغيرة لأبناء فرح. قالت تشكوني لزوجة خالي:

- ابنتي فنانة في اختيار صديقاتها. وراحت تشغلني بأمور غير ... حتى ضاع الوقت دون ما أردت.

فرح لم تحظ بأي طفل من زوجها لكنها صارت أماً لصغاره ... ن لا أم لهم، ولأن الأمومة أصيلة في تكوينها لم تغضب، ... العكس اعتبرت نفسها محظوظة لهذا السبب، قالت لي وهي ... ضحك كعادتها:

- الواحدة يبقى نفسها في عيل، أنا عندي بالجملة.

بدا مظهرها طيباً ومحترماً لزوجة وأم عندما زارتني آخر مرة لكنها كانت ساهية ومشوشة بدرجة ما.. سألتها:

عامل معك إيه؟ أجابتني:

- كويس طبعاً الحمد لله. لكن صوتها سيحملني للصعود من ضحكتها المعتادة إلى عينيها، كانت هناك كدمة تحت إحدى عينيها. لم استوضحها عن الأمر ولم أعلق بأي سؤال. كان سؤالاً سيفتح عليّ باباً من الأحزان.. فلو سألتها ستبقى الحكاية بذهني يوماً أو عدة أيام، وربما أنجرف في تيار من سيناريوهات طوباوية متدرجة الصعود، ربما تبلغ ضرورة أن تترك ذلك الرجل، وأن تغير حياتها بالكامل. وبعد قليل من التفكير سيتقوض

t.me/qurssan

بنائـــي بالكامل.. لأنها لا يمكن أن تترك زوجها أو أن تفعل شيئا من ذلك.

ســـينتهي الأمـــر لأن أتذكرها بطيبة لأنها أيضاً طيبة. تنتقل الأفكار سريعاً.. من "يجب أن ترفض، تتمرد، تثور" إلى "يجب أن تنحني للريح" لأن.. "ظروفها كده".

فـــي الحقيقة هي ليست صديقتي بالمعنى التقليدي، لكني أقدر لطفهـــا كثـــيراً، كمـــا أنها كانت ساعي البريد بيني وبين منتصر وكانت رفيقتي في احتمال وحدتي أيام سفرهم وفي احتمال غربة وجمود جدتي أيضاً، ثم تغيرت الأيام، تغير كل شيء، تركنا البيت القديـــم وتركـــنه هي أيضاً فبدا كم كان بعيداً عالمها عن عالمي، فأمـــثالها مهمـــون بالنســـبة لنا كي نستعيد انسجامنا مع ذواتنا بما ســـيتراءى لـــنا فعلة خير، ثم ننسى همهم حين نضع بأيديهم ورقة مـــن المـــال عـــند باب الشقة، ولن يكون لهم بعدئذٍ من وجود في الفضاء الباقي بين أفكارنا وبين الباب المغلق.

لكنـــي عند الباب لم أتمكن من منع نفسي من البوح بالسؤال الذي كنت أخشاه:

– ليه ضربك؟ أجابت وهي تضحك كعادتها:

– أبـــداً.. شتمني قمت كبيت له علبة الملح في الأكل، بالذمة مش يستحق؟ كنت أضحك وأنا أقول:

– أكيد يستحق لأنه إتجوز واحدة جبارة زيك. ردت:

– هو اللي ابن... والله لولا العيال.

t.me/qurssan

ضـــحكنا حـــتى أنني نسيت أنها من عالم آخر، وتذكرت فقط اني أحب جرأتها وعنادها.

امتثلـــت تمامـــاً للقلـــق الذي بدل ملامح زوجة خالي الطيبة، ووضـــعت الفـــيديو الذي اشتراه لي خالي أوتوماتيكياً وتلقائياً بقاع الحقيـــبة كمـــا أمرتني كي لا يقع بأيدي رجال الجمارك على حد قولهـــا.. كانـــت مبتسمة بطيبة وهي تضيف جريمة جديدة لقائمة جرائمـــي، قبل أن يطل خالي علينا بابتسامته الأبدية معلناً أن كل شيء مع رجال الجمارك "تمام التمام".

زوجـــة خالي الطيبة ذكية أيضاً، تبتسم ابتسامة غامضة وهي تـــتأمل وقفته المسرحية أمام حشد من ضيوفه فارداً ذراعيه بحذاء جسمه ومتحدثاً بصوت ممتلئ مؤثر:

- البلد بلدي أنا، لما بدأ الضرب كل أولادها هجروها إلا أنا، حتى لما الحكومة قالت أرحلوا عشان الاستنزاف قلت: لا.

قـــبل انـــتهاء العرض تكون الدموع طافرة من عينيه موجعاً قلوب من حوله.

ابتسامة الزوجة الذكية ستقول لي: مازلت صغيرة.

كانـــت تظننـــي أصـــغر من أن أفهم أن ليس كل ما يقال هو الحقـــيقة، فـــي الواقع كنت أحاول أن أقترب من فهم ذلك الرجل اللغز الذي تتبعه طوابير من المعجبين، ولا أثق تماماً بأني فعلت..

ربمـــا لـــم يكن مشبعاً بثرائه ونجاحه، ربما كان بحاجة لأن يؤكـــد لنفسه أنه ابن البلد الجريء الذي دافع عن مدينته ولم يفرط فـــيها، أو المحـــنك بالحروب والقوانين الذي أصر أن يجمع حوله

t.me/qurssan

أهلـــه وأصـــدقاءه بعـــد أن اســـتمر بطلاً في طوفان السوق. إنه ببساطة: خالي "الشجيع". وهذا الاسم لن أخبر به أمي التي لن تعلم أيضاً حقيقة العصا السحرية التي جعلته مليونيراً في زمن قياسي، لكن الصدفة وحدها هي التي ستدفع في طريقي بصحافي مشاغب سيكشـــف لـــي كثيراً من الحقائق التي ربما كان من الأفضل ألا أعرفها.. لكنها حقائق.

الحكايـــة التـــي أخبرتنـــي بها أمي في تلك الليلة فأضحكتني للحظـــات قـــبل أن تغضـــبني طويلاً كعادتها معي، كانت بسيطة ومكـــررة لكـــنها أرضت نزوعاً بنفسي للتشفي بذلك الرجل الفاتن الذي تسللت محبته إلى قلبي دون أن أشعر.

– خـــالك في شبابه كان طائش وفسدان، كان جدك يديله كل عقله والثانية...

أضحك ثم أكف عن الضحك منصتة باهتمام حين تكمل:

– لكـــن ربنا هداه وانصلح حاله وبقى أحسن من كل أخواته المتعلمين. لم تشعر كم أغضبتني حين ختمت حديثها:

– كل العز لأولاده. ربنا يجعل عُمر من نصيبك.

ثراء خالي الذي رأته أمي مزية تفوق مزاياي جعلني أغضب مـــنه، أمـــا ابنه فكان طيباً ولطيفاً "لا لون له"، لكني لم أحبه ولم أتمناه ولا للحظة واحدة.

كـــان ابـــناً لا يشبه أبيه الذي تأثرت كثيراً بمشاهده الدرامية، خالـــي كـــان أحد وجوه المدينة المتعددة أما العجوز التي تعطلت

t.me/qurssan

..ـيارتنا بالقرب من بيتها الصغير فكانت وجهاً آخر.. خجلت أن أرد يدها الواهنة المهتزة التي امتدت نحوي بكوب الماء:

- عطشـــانة يـــا بنتـــي؟ شـــربت ماء مرطباً بنكهة الفخار وشـــكرتها. أخبرنـــي خالـــي أنهـــا عجوز مسكينة تستحق الشفقة وترفض الإحسان. لكن زوجته حكت شيئاً آخر..

- زوجهـــا كـــان شيخ الصيادين، في نوة العوة أخذه *البحر*، وابنها أخذته *الحرب*."

ثلاثـــة حروف كان رنينها يشق سبيلاً مرة للماء وأخرى للناء وخلفهما يلوح شبح الموت، انتبهتُ لصوتها حين استطردت:

- عـــندما لـــم تجد مجيباً للسؤال الذي نطقت به حيرة عينيها عن ولدها حملت معها بعض الماء ووقفت تنتظر العائدين.. شباناً كثيرين في عمره، تنتظر حتى يروي الواحد منهم عطشه ثم تسأله عـــن ابنها لكن أحداً لم يعرفه، نفذ الماء وقال لها آخر من شرب: ارجعي يا أمي ما عدش حد.

عـــادت ولم تعد تسأل عن ابنها، لكنها ظلت كل صباح تملأ القلل الفخار لتسقي العطشى والعابرين.

كانـــت أمـــي تعد حقيبتنا لنرحل عندما قدم لها خالي الأوراق لـــتوقعها - حـــتى تلـــك اللحظة لم أكن أعلم أنها تدفع أقساط شقة جديدة لنا بحي غير بعيد عن البحر - ثم حدثها عن أخوي:

- الصـــيف الجـــاي بأمر الله بعد ما يكونوا أخذوا شهاداتهم ييجوا يعملوا لهم مشروع صغير هنا. أجابته:

t.me/qurssan

- ياريت يا أخويا بس ما بقاش حيلتنا حاجة. رد على الفور: طب ما تبيعوا البيت، هوه يعني لازمكم في إيه؟

دقت صدرها وهي تصيح:

- يا مصيبتي. والله الراجل يروح فيها.

كان العطش يقطع أنفاسي ويحرق جوفي وأنا أبحث عن تلك العجوز لتمد لي يدها بكوب الماء.

• • •

t.me/qurssan

قسمت نفسي بينهما.. لم يكن من خيار آخر.

يـــرن المنبه فأقفز كالممسوسة من الفراش قبل أن أعرف في اي يـــوم أنا، أغسل أسناني، أسرع لأعد حقيبتي وثيابي، ثم أنطلق معطـــوات لاهـــثة.. الساعة الأولى من الصباح تمثل آلة جهنمية مطلقـــة القدرة، استسلم لقوتها واستبدادها وأقوم بالأفعال ذاتها التي اكررها كل يوم لأجدني بعدما تعبر بسلام في مكتب الأستاذ الكبير الذي قبل بي كمحامية متدربة.

كثير من البديهيات مازالت تثير دهشتي.. كثير من الفقر، من الجشـــع، كثـــير مـــن الغضب والكبت والتشظي، من سوء الفهم والسخرية القدر.. سوء الطالع أيضاً.

عامـــان من الانغماس في الملفات مع مجموعة المتدربين في إعـــداد لوائح الاتهام، تحري قانونية الإجراءات، دراسة ملابسات القضـــايا والثغرات القانونية، انتهاء بتقديمها للمجموعة الأقدم من المحاميـــن للمراجعة وإعداد المرافعات حتى يضع الأستاذ توقيعه مبتســـماً ويغلق خزينته التي لا أعلم كم كان سيبلغ حجمها لو فعل شيئاً أكثر من التوقيع!

لكن الأستاذ هو الأستاذ، يضحك بخبث وهو يقول لي:

- استعدي للمرافعة يا أستاذة. لحسن الحظ لم يطلب ذلك مني جديـــداً، لكنت وقعت في مأزق حقيقي، فعلاقتي بالقانون هي علاقة بالكلمـــات، ســـيكون من العسير عليّ أن أراها تكتسي لحماً ودماً، وذلك ما فطن له أستاذي.

t.me/qurssan

شـــيئاً فشـــيئاً داخلتني البلادة، صرت أرى العنف باستخفاف، أتحقـــق مـــنه قـــبل أن يقـــع.. فـــي الغضب الذي يغير النظرات والملامح، أتحقق من وجوده في ذاتي أيضاً، صرت أراه كقدر لا مفـــر منه، بإمكان شجار صغير بين اثنين كأخويّ مثلاً أن ينفلت كغول.. فتنسكب دماء وتضيع حيوات.

"انفجـــر الغضب من عينيه متجاوزاً أبعاد الشاشة، كان واقفاً بجـــوار المكتب، وفيما كان الآخر يتهكم على كتابه، كانت فتاحة الأوراق ساكنةً داخل جرابها فوق المكتب، لا تشع بأي بريق بينما راحـــت عيـــنه تشع غضباً، والكلمات المنطوقة لازالت تسخر من الكلمـــات المكـــتوبة، لـــم يكـــن سوى صراع بين الكلمات عندما انحرفت عينه نحو الجراب، فبدت الفتاحة لامعة، حادة، امتدت يده نحوهـــا وانقبضت عليها أصابعه ثم اندفعت بها في جسد الكلمات المـــنطوقة، أرســـل الغضـــب إشارة عبر الأذن إلى الدماغ التي أرسلت بدورهـــا إشارة إلى اليد، اقتصت الكلمات لنفسها وسال الدم.. في قلب الليل".

مازالـــت الشاشة قادرة على أن تخلق بي نفس الدهشة، نفس الشـــغف.. تجعلني مستباحة للحلم، مفتتنة بالقدرات المذهلة لمخيلة أولئك البشر.. الفنانين.

نـــادر هو من لفت نظري إلى هشاشة شغفي بالمشاهدة إن لم يكـــتمل بالفهم الحقيقي لمفردات الفن.. رمى لي طرف الحبل الذي لم ألتقطه إلا بعد سنوات.

t.me/qurssan

أعرف أن لا أحد ممن حولي يضاهيني الآن في تحسس هذه الجماليات وفهم مفرداتها، كان ذلك يمنحني إعجاب صديقاتي ويغذي اعتزازي بذاتي، وإن لم ينقذني من الشعور المضني بأني أمضيت الساعات الطوال أشاهد وأقرأ وأتأمل، بدا لي في ذلك الوقت أنه مجهود ضخم راح دون جدوى.

ذات يوم سأفتح الصندوق القديم وأخرج الصورة.. العجوز "جدتي" تقبل صبية صغيرة هي أنا، الصورة الوحيدة التي تجمعني بها "والمرة الوحيدة التي تقبلني فيها" حينما التقطها لنا أحد جيراننا الودودين في ليلة عيد فطر، بدا لي وجودنا بالصورة أكثر من مجموع، كان نتيجة كيفية لالتصاق وجه مغضن عجوز بآخر يافع مشدود، صورة بالأبيض والأسود الساحب الذي أبرزه سواد الليل الداكن في الخلفية. ذلك ما جعلني ألصق الصورة في صفحة بيضاء كبيرة من دفتر الرسم وأعكف على اختيار خلفية خاصة تليق بنا، جعلتها مرة شارعاً واسعاً يضيئه ألق الشمس المنعكس فوق اللافتات المعدنية للحوانيت الصغيرة التي كانت تقعي تحت بيتنا. في مرة أخرى اخترت شارعاً مظلماً تسقط فوقه حبات المطر.. كل حبة لؤلؤة تبرق فيها ملامحنا. ثم استقريت أخيراً على سماء صغيرة تسبح فيها النجوم.

أشارت أمي إلى سرب صغير يسير بعيداً عن النجوم الأخرى باستغراب، فأخبرتها أنه سرب من النجوم الأليفة أطالعه في السماء كل ليلة، لكن قولي لم يرحها، قالت:

– دي نجوم شاردة بعيد عن الباقيين.

t.me/qurssan

انتبهـــت لأني لم ألونها كباقي النجوم، ربما لأني لم أجد لونا يناســـبها، أو ينســـب أفكـــاري عنها فأبقيتها معتمة، وظنتها أمي شاردة.

استدارت لتمشي بعد أن رمت بوجهي تعليقاً أخيراً: كل الناس في وادي وأنت في وادي ثاني.

تعرف أمي كيف تنال مني دائماً بأقل الكلمات.

مـــن الـــنجوم المضيئة اخترت نجماً لشريفة وآخر لهند، كما لأمـــي وأبـــي، أما السرب المعتم فجعلت به نجم منتصر.. عراف الأرض، ونجـــم نـــادر.. العين السحرية، ونجم البنت التي تسكب الملـــح بطعـــام بـــائع الجمال الذي زوجوها منه حين يضايقها ثم تنحني بحنان لتربي أولاده.. نجم فرح، ولا أعرف لمَ جعلت نجما للمرأة التي تزوجت حفنة من الرجال بحثاً عن الحب دون أن تأبه لانتهاك سَمعتها في المجالس المغلقة.

أحـــدق برسم أحبه، بسماءٍ صغيرة هي كل ما لي ولا أعرف أين أرسم نجمي أو كيف أجد مساره.

صـــرت أشـــعر أني اثنتان لفرط ما قسمت نفسي ووقتي بين عالميـــن متناقضين، أحدهما للقبح والآخر للجمال، تستهلك القضايا صباحاتي، وأقترض من هند شرائط الأفلام للأمسيات.

هكـــذا كنـــت أمنح نفسي صامتة، وبوعي كامل لعالمين كي أفلـــت مـــن البنت التي تصرخ في نومي: أنا وحيدة. حاملة عبق لحظات متباينة من حركة الأفلاك لتطارد زمني.

t.me/qurssan

سوف أتحايل كثيراً وكثيراً كي أفر منها لكني سأخفق في الفرار من نفسي.. ومن صورتي. المرآة هي التي أخبرتني أني كبرت، المرآة هي التي تحددنا في خطوط تنحني وتتمايل لتختصر وجودنا في صورة، هي التي أخبرتني أني لم أعد فتاة الرابعة عشرة، هنالك خطوط، تقوب رفيعة، بقع داكنة، وأشياء أخرى بجلدي لا ترى ببساطة لكنها ستصبح مرئية بوضوح بعد عدة سنوات.

لم أعد الصغيرة التي تتحسس مواضع جسمها بفضول وامتنان، صرت أدرك أن نوبات الجيشان الحارق التي تقتحم دمي هي بفضل نظام هرموناتي، وصرت أحترف التعامل معها.. ألاحق رأسي بملفات القضايا والأفلام، وحين تجلدني مشاهد الحب في الأفلام في صميم روحي ألاحق جسدي بالعناء البدني.. أمشي ساعة أو ساعات تبدو أطول من حقيقتها بسبب سرعتي واحتشادي بغضب غير مفهوم، أتنفس هواءً ثقيلاً يثقل رأسي أو أقلب حجرتي، أنفض الأثاث أو أبدل مواضعه حتى أسقط في النوم ميتة ملتفة في أغطية أثقل من أن تتيح لي أن أتذكر جسدي باعتباره جزء مني إلى أن يبعثني صوت المنبه في الصباح.

عرفت أني لم أعد صغيرة حين رأيت صدري يعلو ويهبط متجاوزاً محيطه الطبيعي وأنا أراقب الراقصة تتمايل في حفل زفاف ابنة خالي. كانت المرأة تهتز شبه عارية وتفعل بجسدها الأعاجيب دون خجل فيما كنت مربعةً ذراعيّ منكمشة في نفسي، أخشى أن يلمح أحدهم صدري في ثورته.. الصغيرة.

t.me/qurssan

عـيون كثيرة أخذت تدور لتبحث عن مشهد يجذبها.. صدر مكشـوف، أرادف أكبر من ثوبها، تدور العيون وأكبرها عينا ابن خالـي الآخر.. خالي الفقير. لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها، لكـنه كلما رآني كان يضحك ضحكة غامضة تكشف قبح أسنانه، غمـوض ضـحكته يجذبني نحوه متحفزة بفضولي، والاستخفاف الذي تكشفه نفس الضحكة يخيفني منه ويدفعني بعيداً عنه، خاصة بعد أن حدثتني أمي بشأنه:

- ابعدي عنه ده ذيله نجس.

سمعت زوجته تشكو لأمي من فراغة عينه ومن طول بحلقته فـي النساء، حكت لأمي كيف تتخلع عيناه وتنشفط أوداجه لرؤية بـروز نسـائي "اقـترب أو ابـتعد عن الأرض"، يختار الأماكن المـزدحمة بالنساء كالأسواق والأوتوبيسات لنزهاته.. "يبحلق ولا يقترب، يشتهي عن بعد. ذلك كل شيء".

فـراغة عينه أو "حكاية ذيله" لن تعفيني من الشفقة عليه حين أعرف أن خالي الفقير.. كان فقيراً ومتشدداً حتى على نفسه وعلى أولاده، حـرمه من البنت التي أحبها لأنها مثله فقيرة، واختار له الـزيجة الملائمـة، لا أعـرف بالضبط ما الذي صدمني في تلك الحكايـة.. حـرمانه من حبه؟ أم تشدد أبيه المفرط والعمومي؟ أم الإكـراه فـي الـزواج بحد ذاته؟ ولا أعرف أيضاً كيف تشابكت خيوط تلك الأسئلة حول حالته الراهنة ومعاناة زوجته.

ابـنة خالـي التي أهدتني عطراً فرنسياً يجلب الحب، أحبت كثـيراً وكثـيرون ركعوا عند قدميها، وكثيرة كانت القصص التي

t.me/qurssan

بعدهـــا كلهـــا تزوجـــت من الرجل المناسب بمعايير أبيها. شريفة وافقـــت على الاقتران ممن ألقت لها به القسمة والنصيب، أما هند فقـــد طالـــت سقفها أخيراً واستطاعت اقتناص الشاب الثري الذي ســـيقتنص ابتسامتها المميزة فيما بعد، ورفضت أنا الاقتران بعمر ابن خالي لا تعالياً ولا جحوداً وإنما فقط لأن أحدنا لم يحب الآخر.

تركـــت فـــنجان القهـــوة التركي المحوجة بالحبهان من يدها وصاحت:

- ميـــن قال إن الحب يجيب السعادة. وتنسى أمي ما حدثتني بـــه وأنا طفلة عن لقائها بأبي، حين أخبرتني أنها اختارته من بين كـــل زملائها الذين أرادوا الاقتران بها، لم يكن أبي هو أذكى من عرفتهم ولا أجملهم ولا أكثرهم ثراء، لمحت يومها بعيني وميض الدهشة فقالت مبتسمة:

- لقيت في عينيه وعدي. ثم استطردت لتخفف من حيرتي:

- بكرة لما تكبري تفهمي كل حاجة.

كبرت أنا وأمي بدلت كلامها.

راح صوتها ينشطر بين الكلام والصياح والنهنهة وهي تحكي عـــن لوعـــات وعذابات كابدتها، عانت كثيراً عندما منحت ذاتها لـــرجل خذلها، فكرهت ضعفها وحبها، جعلتني أشعر أن خشونتها معي كانت تخفي خشيتها من أنوثتي وضعفي وتكراري إياها، في مجتمع لا أسوأ فيه من الوجود كامرأة إلا أن تكون عاشقة.

تظاهـــر خالي بأن الأمر لا يعنيه، أما زوجته فصاحت بوجه ابنها:

t.me/qurssan

– ليه فائدة إنك تكسب زوجة وتخسر أخت؟

حكايـــة انتهت منذ أكثر من عام. هدئوا جميعاً وناموا، وبقيت وحـــدي مسهدة، لأني لا أشبههم، لست منهم، لأن سرباً من النجوم الألـــيفة كان يحرس حلمي، نعم لازلت أحلم بحبٍ حقيقي.. بوجد حقيقي، فيه أولد وأذوب وأتلاشى في اللحظة ذاتها.

ذلك هو سري معهم، ذلك هو شبهي بهم، أولئك الذين يجافيهم الـــنوم ويبقون عالقين في سماوات الحلم البعيدة، *لأنهم* يمقتون أن يكونـــوا صـــوراً أو ظـــلالاً، *لأن* كلاً منهم يحاول أن يجد مساره الخـــاص، حـــتى لـــو ألقـــت به حقيقته الخاصة إلى أكثر الطرق وعـــورة، *لأنهم* يدركون أنهم ليسوا من العباقرة، ولا يمتلكون أية مزايا خارقة، بل على العكس يتيقنون من غباوتهم وسطحيتهم في كثير من المواقف ويعرفون ضآلة إمكانياتهم، *لأنهم* حين يفرحون قـــد يموتون فرحاً من أشياء لا يجدها الآخرون ذات معنى وحين يحـــزنون لا يجـــدون مـــن يـــتفهم أحزانهم، *لأنهم* حتى لو قيدت أطـــرافهم إلـــى الأرض تظل أرواحهم طليقة، *لأنهم* حين يحدقون بالمـــرايا لا تفتنهم صورهم الجميلة قدر ما يفاجئهم قبح دواخلهم، *لأنهـــم* ينصتون جيداً لأصوات أحلامهم، *لأنهم* رغم كل اعتزازهم بذواتهم وحيطتهم يتعثرون وينكفئون ثم ينهضون في الغالب، لذلك يراهم الآخرون سائرين على أذرعهم محلقين بسيقانهم في الهواء، ويظـــنهم الـــبعض مجانين، *لأنهم* لا يكفون عن البحث عن معنى لحـــيواتهم، *لأنهـــم* منذورون للحلم ومسكونون بالتساؤل يسمونهم النجوم الشاردة.

t.me/qurssan

بمحـــاذاة الشـــاطئ سأمشي طويلاً، أحدث عنهم البحر، الذي يضـــمحل فـــيه كـــل شيء حتى الذكريات المفعمة بمزيج المحبة والغضب ممن يرحلون ولا يعودون، لا أعلم أنه سيجلب لي حبي المقدور من شاطئه الآخر.

* * *

t.me/qurssan

هـنا تراوغيـن.. تحاوليـن إسدال الستار على ذلك الفصل بالذات. تتمنين لو في إغماضة عين واحدة ينمحي كل ذلك لتفتحي عيـنك بعدها كأية فتاة طبيعية لا يستغرقها الحلم بماضٍ أفضل.. ولكـن أليس في ذلك شيء من التجني على فترة من عمرك كانت بها لحظات من سعادة لا تنسى!

لـم أكـن أعـرف أن السمكة التي تعلقت بسنارتي ستجعلني أتـراجع للـوراء حين تنفلت فجأة في الماء ملقية بي بين ذراعيَ الرجل الذي سيصبح زوجي بعد عدة أشهر.

لمـاذا كـان ينظر في عينيّ كأنه يعرفني؟ كأنه يحبني؟ ذلك الكهـل أشـيب الشعر جميل العينين الذي تناديه هند "خالي أكرم"، ولمـاذا أرتبكـتُ حين أرسل لي وردة في الهواء؟ وعندما اقترب مني ليرى ردة فعلي تجاهلت ما حدث، تجاهلته هو نفسه حتى أكل الغضب عينيه الجميلتين، وأكلت الشفقة عليه قلبي.

أعـترف بأنـي صرت مضطربة شيئاً ما منذ أخبرتني هند بعودتـه، فرحة ومتوترة، أكتشف بقعاً خضراء بساقي فأخمن أني اصـطدمت بـزاوية المكتـب أو برجل الطاولة دون أن أشعر. يفاجئني شعري في المرآة فوضوياً ومبعثراً، فأتذكر أني نسيت أن أسرحه طوال اليوم. وكيف أتذكر!

سـيأتي الـرجل الأسـطورة، الرجل الذي طالما تمنيت أن أعـرفه.. هل كان مقدراً لنا أن يكون لقاؤنا الأول عند البحر، كي يبقى شاهداً على كل ما حدث؟

البحر رحلة أبدية.. شاهدٌ أبدي.

t.me/qurssan

كان عليّ أن أمدد إجازتي لتسنح لي فرصة البقاء معهم، كان عليّ أيضاً أن أعد نفسي للقاء المرتقب، فمنذ اختفاء نادر ظلت الذكريات تجرح روحي كل يوم، مر كل ذلك برأسي في لحظة واحدة، دون أن أدرك أن حياتي ستسلك طريقاً جديداً بعد تلك اللحظة.

هكذا افتتنت به.. قبل أن تعرفيه؟ افتتنت بمن حدثوك عنه، بالحكايا التي غلفت وجوده بالسحر والأسرار، قالوا أنه شخصية مدهشة، كثير التوتر كثير الفرح، مولع بالحياة. قالوا أيضاً هو أكثر الشخصيات الجذابة التي يمكن أن تقابليها بحياتك. فتهفو نفسك لمن نام فوق صدور الشقراوات ثم أعاده الشوق إلى دردشة الفلاحين، ورطانة الباعة الجائلين، ولم يكف أبداً عن الاستمتاع بحياته وحريته.

سيفاجئك في الصباح بوجه بشوش يعتمر طاقية بحرية، ليأخذك في يده حيث تكون هند في يده الأخرى ليركض بكما نحو البحر لعدة ساعات قبل أن تجدي نفسك في أحد المطاعم الجميلة بصحبة رجل يطلب كل شيء بشوق ينم عن جوع موحش، لكنه بعد ملاعق قليلة من هنا وهناك سينهض زاهداً بكل صنوف الطعام وآخذاً في الإلحاح من أجل شيء جديد.

صرتِ مأخوذة بمن قلب المواصفات التي تخيلتها لزوج رأساً على عقب، ناسية أحلامك القديمة، مشتهية لقاءه، مأخوذة بشيء لا تعرفينه، صوته، نظرته، ولعه بالحياة، أم شيء آخر.

t.me/qurssan

أعــترف بأن سلوكي معه في بداية تعارفنا كان ملغزاً ومتقلباً بيــن حــديّ المسافة الممتدة من التبسم إلى التجهم، من الفرح إلى الغضــب، لم أتعمد ذلك، كان ذلك ما أثاره فيّ ذلك الغريب الذي عــبر فــي حلمي ذات مساء فجعلني أسيرة لحلم أبيض.. بفستان الزفاف وتاج الورد.

كأنــي صرت وحيدة في فراغ لا حدود له، شديد السواد، لا مــنفذ لــي ســوى طاقــة نور أتت في روح ذلك الرجل فخطف روحي.

"عــندما صارت روحي رهينة لنظرة فاتنة، كنت قد أوغلت فــي النســيان، وتراجعــت لعقدين أو أكثر، كنت قد عدت طفلة، وقبلــتك فــي فمك قبلة، سوف تعجز بعدها عن أن تقبل غيري، سوف تجعلك منذوراً لحبي".

كــيف استطاع أن يستخرج مني أجراً ما بي، وأجمل ما بي؟ كأني صرت أخرى، كأن أخرى تعيش فيّ وتتحدث بلساني وتطلق العــنان لرغــبات ظلت مستبعدة طويلاً، رغم أنها لم تكن بعيدة، كانت في داخل داخلي.

غنيــت بصــوت عــالٍ، عــالٍ جداً فغنى الكون كله معي، وضحكت من قلبي، كأن ما ضحكته في السابق لم يكن سوى وهم، وهم الضحك، وهم الحياة. كأني وجدت معه وحده حياتي الحقيقية.

هــل كانــت جرأته التي أدهشتني .. فأسعدتني وأخافتني في نفــس الوقــت هي التي تكمن وراء قدرته السحرية على تغييري وإدهاشي من نفسي؟

t.me/qurssan

"لكني سأسحب يدي من يدك سريعاً عندما تصافحني، وسوف أشيح بوجهي بعيداً كي لا تقع عيني في مرمى بصرك، ولا تندهش حين تسمعني أحدث الجميع إلا أنت. وحين أصبح وحدي سأرسم وجهك داخل علامة استفهام كبيرة، وأبحث عنك في نقطة صغيرة مظلمة بعقلي، كي أستعيدك، كي تصير لي، وتبقى معي بلا نهاية، كي يستعيد وجهي ملامح ولادته، وتنطلق صرختي الأولى للحياة. فهل بإمكانك أن تفسر لي لماذا وكيف تفعل بي ما تفعله الآن؟ لماذا تجعلني أحبك وأخافك في الوقت ذاته؟"

• • •

t.me/qurssan

لعبة.. أنتِ التي اخترعتها، بعدما تعاليتِ على لعبة الكراسي الموسيقية، ورفضتِ الامتثال القدري أو السعي لاقتناص المكان المناسب في قطار الزواج وبقيتِ وحيدة في وحدتك.. إلى أن عبر بحلمك ذات ليلة فصحت: هذا من أريد. قبل أن تعرفيه؟

أنتِ التي رتبتِ لكل شيء.. لقاء يأسره وكلمات قليلة تحيره، تثقين أنه لم يسمع مثلها من فتاة في عمرك وظروفك من قبل، ليترك كل النساء من حوله، لينفض ما تبقى بذاكرته ويتقدم نحوك.. هذا ما كان، لكنكِ في غمرة اللهو نسيتِ أن من يكبش النار هو أول من يكتوي بها.

عرفتِ أنك صرتِ مفتونة به، عندما توقفت عن مخاطبة نجومك البعيدة، كما ظللتِ تفعلين لأعوام طوال.

افتتنتِ به إلى ذلك الحد؟ حد الموت؟ انقطعتِ عن الطعام وابتعدتِ عن الناس معتكفة فوق ملفات القضايا حتى شحب وجهك واختل توازنك وبدأت تخفتين شيئاً فشيئاً، لولا مبادرته، التي لو تأخرت قليلاً لكنتِ تلاشيتِ بالفعل.

قبلتِ دعوته كي تستمر اللعبة.. لقاء منفرد ببيت صديق غائب. تتحايلين على قلقك وريبتك وتخدعين نفسك "تلك هي قواعد اللعبة" بأنك تقبلين الدعوة لتلقنيه درساً لا يُنسى ليعرف أنكِ لستِ كغيرك من اللاتي عرفهن قبلك، لكنك تكتشفين أن الدرس الحقيقي كان لك... أنتِ مثل غيرك.. ضعيفة وصغيرة أمام رجلٍ قرر أن يكون الحب سلاحه الوحيد.

t.me/qurssan

أشياء كثيرة أخذت تتداعى داخلك عندما اقترب منك.. أفكار، أحاسيس، وهرمونات تغلي في دمك وتجعلك تدركين أنكِ وقعتِ في الفخ الذي نصبته له.

من أين أتى فيض الدموع لينسكب من عينيكِ مفاجئاً لكِ ومفزعاً له؟ من أين أتى لتنقضي اللحظة التي تمنيتها؟ رغم خوفك منها ومنه ومن نفسك.

فزع عينيكِ لن ينقذكِ من نظرة استنكار بعينيه تلاحقك بسؤال ظل يجرحك في دخيلة نفسك: لماذا قبلتِ دعوته؟ وعلى الأرجح سيفاجئك بسؤال آخر:

متى تكفين عن ألعابك الطفولية؟ متى تنضجين؟ يتفتت عقلك في متاهة التناقضات.. أنضج بمعنى أن أبتعد عنه أم عكس ذلك؟ أريد أن أتبع "الصواب". لكن ما هو؟ ولماذا تدفع ذاكرتك المضللة بتلك الكلمة أمام عينيكِ الآن؟

تبكين وتبكين.. الآن سيظنك تافهة، حقيرة قصدتِ إغواءه ثم التلاعب به، لن يتفهم كيف أتمزق بين مشاعري ومخاوفي، إنه لا يعرف كيف نعيش.

"عندما تكبرين ستتزوجين.. هكذا عشنا دائماً"

حلقة وضعوها بأذنك عقب ولادتك، منذ كنت صغيرة.. صغيرة، أخبروكِ أنكِ بنت تختلف عن الأولاد، منذ ألبسوكِ فستاناً منفوشاً وعقدوا ضفيرتك بفيونكة ملونة، وأعطوكِ العروسة الجميلة لتلعبي بها.

t.me/qurssan

كـل صورة لكِ منذ عامك الأول تشي بأنكِ في ذلك الصف.. صـف النسـاء. ذات يومٍ تكبرين وتصبحين محبوبة ومرغوبة.. تصبحين زوجة وأما وبيتا.

ولأنكِ في صف النساء يجب أن تكوني جميلة وجذابة للصف الآخـر.. صـف الـرجال، ومن سوء الحظ ألا تكوني جميلة أو جذابـة، لكـن البشـع كل البشاعة هو أن تصيري مجذوبة لواحد منهم.

أنـت بنت.. يسخرون لأنوثتكِ طرائق وشعوذات، ويرصدون لها ميزانيات، وكتب وبرامج وأبحاث كلها في خدمة أنوثتك، لتزيد قدرتـك على الجذب والإغواء، لكن عفتك ستصبح خزانة زجاجية للعرض والمنع.. لتأجيل استثمار ثروتك لوقت الزواج.

هكذا عشنا دائما.. تنتقل العادات مثل أكواب الشراب الأحمر الحلـو فـوق صينية كبيرة تدور في العرس من صف إلى صف، من جيلٍ إلى جيل، ومن قرنٍ إلى قرن.

تنحنـي حـواء المصـرية لتقطف الزهور، ثم تبدأ في نقعها طبقات فوق طبقات قبل كبسها لاستخلاص زيوت عطرية تستعمل كمسـاحيق للوجـه من زيت البان، أو تخلط اللادن بدهن حيواني مغـذ للبشـرة قبل آلاف الأعوام من شيد المختبرات عالية التقنية لتحضـير مستحضـرات التجميل. من تدليك الجلد بزيت الهجليج والراتـنج، إلـى الكـريمات المغذية باهظة الأسعار، ومن سحق المرمر قبل خلطه بالعسل وملح النطرون لعمل دهانات تبقي على الشباب وصولاً إلى تسخير علم الجراحة الحديثة لذات الغرض.

t.me/qurssan

لابــد أن تكوني جميلة كي يحوم حولكِ الرجال، لكن إياكِ أن تســمحي لأحدهــم بالاقتراب إلا بالزواج. بالزواج أنتِ محبوبة، محترمة ومكرمة.

الزواج هو جواز المرور إلى الحب.

الحــب بــدون زواج مرفوض ومحرم وإن كان مقبولاً جداً ومشروعاً لديهم أن يتم الزواج بدون حب.

هكذا عاشوا دائما، وعند هذه المحطة بالذات لا يمكنك إلا أن تســيري وراءهــم، لأنكِ منهم، لأنك رغم كل تمرداتك الطفولية تســعين لأن تكونــي مقبولة ولو بقدرٍ ما، لأن لا ترفضي تماماً، لأنك تخشين أن تصيري نجمة شاردة.

عــندما أخبروك أن الزواج هو العقد الأوثق، أخبركِ قلبك أن الحب أكثر من كلمة، أكبر من عقد، إنه وعد.. بالسعادة، بالأمان، بالاكتمال.

إذا كنتِ ترفضين الحب بدون زواج لأجلهم، فلأجل نفسك لن تقبلي الزواج إلا ممن تحبين.

هكــذا عشنا دائما، أما أنت أيها القادم من النصف الآخر من الكرة الأرضية، فلا تعرف كيف نعيش.

الزواج.. الزواج، ظلت هذه الكلمة تطن بأذنيكِ حتى قالها.

كان اختياراً حقيقياً لي.

أعــترف بأنهــا كانت قليلة المرات التي اجتزت فيها اختباراً حياتياً بنجاح، فإخفاقاتي كانت تفوق نجاحاتي إذا أردت الإنصاف. لــذا كانت سعادتي تتجاوز الفوز بزوجٍ مرغوب، كانت كفوزٍ في

t.me/qurssan

معـركة كـبرى.. فبعد أن دقت أمي صدرها بيدها، شهقت شهقة مفزعة:

- ترفضـي الشاب الغني وتتمسكي بالعجوز اللي قضي نص عمره في حضن الخواجات.

سخرية أخويَ ألمتني أكثر من صراحة أمي، لا أعرف كيف أقـول هـذا لأنه يؤلمني كثيراً أني شعرت بهما بعد وقت قصير يـريدا أن ينتهيا من الأمر كله، يريدا الخلاص بأي شكل أكثر مما اهـتما بسـعادة أختهما. أما أبي فكان قد عرج نحو تيه آخر..بناه ميـنوس ابـن زيوس أكبر آلهة الإغريق انتقاماً لقتل ابنه في أثينا التي فرض على ملكها أن يرسل إليه كل تسع سنين جزية مقدارها سبعة من الشبان وسبع من العذارى يقدمون ضحية إلى "مينوتور" وهـو مـارد في صورة ثور ذي رأس ضخم وضعه مينوس في التيه.

وعـندما يذهـب علـى هذا النحو يبدو أبي كأنه ألعوبة قوى خفـية، يلهـث من مطاردة لصوص، إلى ملاحقة أشباح ومردة، وينساني! لكنهم لن ينسوني، أخافوني من أكرم كثيراً، من اختلاف شخصياتنا وثقافاتنا، من فارق العمر بيننا بالإضافة لاختلاف نسق حياته عن حياتي.

أخافوني كثيراً فمنحتني ردة فعلهم الحادة عناداً وروحاً قتالية لم تكن لي..

أرى نفسـي.. كيف كنت أرى نفسي وأنا أحدثهم بإيمان نبي تقمصـته رسـالة مقدسة؟ أرى الثقة المطلقة والادعاء الحاسم في

t.me/qurssan

صـــوتي ونظراتـــي وإشـــارات يديّ. ذلك ما أتي بإذعانهم، كان لحماسهم المحموم في الرفض نفس قصير.

كـــل خطـــوة في تراجعهم كانت تهزني من الداخل، وتدفعني إلـــى الـــتراجع أنـــا أيضاً، وإن كان بعيداً عن أعينهم، بعيداً عن آذانهـــم، في سراديب كتماني الدفينة كنت أصرخ: لماذا تستسلمون سريعاً؟

بعد عدة سنوات من تلك المعركة صارحتني أمي بأنها أذعنت لخشيتها من أن أهرب معه أو انتحر أو أموت، لكن ما صاحت به حين رفعت الراية البيضاء:

- أنـــت حرة. كل واحد بيتعلق من عرقوبه. وأردفت: القربة المقطوعـــة... أليست قادرة تماماً على أن تنال مني بأقل الكلمات؟ أكانت حريتي هي التي تهمها بالفعل أم أنها كانت غير قادرة على توريـــط نفسها في مسئولية الاختيار خاصة بعد أن نأى أبي بعيداً؟ أهـــم ما في الأمر أن المسئولية المباغتة بدت لي كالورطة. نعم، تملكنـــي الخـــوف مـــنه ومن قرار الزواج الذي سأتحمل نتائجه وحـــدي، لولا أني رأيت شيئاً محدداً كان أكبر من مخاوفي، شيئاً مغبشاً مثل صورة قديمة مرت أمام عيني..

يوم الثانوية؟ لا أظن.

فالقسم حنثت به مرات عديدة كنت على استعداد أن أحنث به هذه المرة أيضاً، بل هي بورتريهات عديدة لفتيان أحببتهم أو خُيل إليّ ذلك.. نظرات، رسائل، لقاءات متلهفة، صدور لاهثة بجيَشان المشـــاعر الشابة، في كل مرة كان يستعصى عليّ أن أجد الحب،

t.me/qurssan

النصف الذي أكتمل به كباقي البشر، كلما تقدم مني أحدهم فررت منه، ربما باستثناء نادر الذي أشعر بأني ما كنت لأفر منه، لكنه تردد ثم اختفي. أمامي الآن الشخص الأكثر إقداماً والأكثر جرأة، تقدم نحوى كثيراً.. تقدمت قليلاً ثم تراجعت، الآن يفتح لي أكرم ذراعيه بأقصى اتساعهما، بآخر ما لديه.. الزواج. فكيف أرفض حبه؟ كيف أرفض من أنا مجذوبة نحوه بالفعل لأجل حفنة أوهام أو مخاوف؟

إنها اللحظة الأكثر بهاءً بحياتي. لكنهم تآمروا علىّ. جاءت فرح لتبارك لك ثم تلاحقك بالأسئلة: عرفاه من زمان يا أبلة سحر؟ وبالنسبة لشغلك ناوية على إيه؟

ومن أين هبط منتصر الآن؟ بعد عام كامل من انقطاع رسائله تصلك منه كلمتان لا أكثر: اسألي قلبك.

لماذا الآن؟ وما كل ذلك العبوس بوجه البنت التي يغطي شعرها وجه البحر حين زارتكِ في نومك، آتية من الماضي أم من المستقبل تشير إلى ذلك اليوم؟

لا أنكر أني ارتبكت لرؤية شقته، فخمة رغم صغرها، مخيفة رغم جمالها، لها رهبة متحف تخشى عليه من خطوة قدمك أو حركة يدك.

بعد أن ابتلعت ريقها ودهشتها من الأبهة الكلاسيكية الفريدة راحت أمي تتحدث عن ضرورة بعض التعديلات بالمكان بينما بقى لُبي مأخوذاً قبل أن يفاجئنا بإحدى عباراته الغريبة:

t.me/qurssan

- لكـــل بلد ثروتها وزينتها. كان حزيناً، منزوياً ونادماً لأنه ترك جدي وحيداً في معركة القطن "حسب تفسير أمي".

فـــي كل ركن وضعت إحدى التحف المميزة لإحدى البلدان، اســـتغرقنا عدة ساعات نستمع له يحدثنا عن قصة كل قطعة: هذه اشتراها من مزاد مسعور بإيطاليا وهذا الشمعدان يوناني مصبوب من الفضة الخالصة، احتاج معجزة ضخمة كي يحصل عليه. تلك اللوحـــة الصـــينية أصلية، تنافس عليها عدد من المليونيرات لكنها صارت من نصيبه.

لـــم تكن سوى لحظة قصيرة.. حادثة تافهة، لكنها ستداهمني مثل صاعقة تسقط عليّ من السماء.

كـــان الاعتزاز يغمر وجهه ويملأ صوته وحركاته وهو يرينا أشـــياءه ويحكـــي عن فوزه، فرحاً بعض الشيء، لا تقولي لي أن لمعة عينيه تومئ لشغفه بهذه الأشياء، لا تقل يا منتصر أنها تشبه لمعـــة عيـــن أمـــي عندما راحت كالمسحورة تمرر أناملها فوق البارافان الأسود الموشى بالذهب فرق صوتها وكلامها كأنها امرأة أخرى.

لـــم يكن البذخ بل الشغف هو ما أثارني، ليس ما حوله بل ما بداخلـــه هو ما أخافني. كنت أظنه لا يكترث لهذه الأشياء، فهو لم يهـــتم بجمع المال رغم أنه يتكسب كثيراً من عمله، شقته بالفعل ممـــيزة إلى حد أسعدني لولا شغفه غير العادي بالأشياء التي ظل يحكـــي عنها كأنها أشخاص حية، متجاهلاً أن يحكي عن نفسه أو

t.me/qurssan

يســتمع لحكايانــا. ماذا أيضاً؟ في الوقت الذي تقارب فيه مع أمي كنت أراه يبتعد عني؟

هراء. كل ما هنالك أنها كانت لحظة من التشوش عبرت في ســلام. أنــتم لا تعرفون شيئاً عن الحب، لا تعرفون أن من يحب ســيقبل محبوبه بعيوبه وعقده وزلاته، لكنك لن تعرف أبداً. الآن ارحل يا منتصر فلا مكان لديّ لشكوكك البشعة، لا مكان لديّ لك، ولا لأي من النجوم الشاردة. اتركوني لنفسي.

لا أعــرف إن كنــت أحــبه أم لا، بل أيضاً لا أمتلك تفسيراً للخــوف الــذي انتابني حين رأيته تحت الضوء الساطع لمتحفه. كأني لم أعرفه أبداً هذا الذي ملأت وجهه ملامح غامضة، لكنه بدا واضحاً حين سألت عينيه: ماذا تخفي عني؟

أجابت بصمتها وبريقها: كل شيء.

حــتى لــو كانوا على حق، فلا معنى لذلك الآن، فالمدعوات يعــددن ثيابهــن اللامعــة. وعامل الفراشة يقف في هذه الساعة المــتأخرة مــن الليل يدق أعمدة السرادق، وعامل الإضاءة علق اللمبات الملونة لتضيء الغد..

غداً عُرسي.

* * *

t.me/qurssan

دخـــل أبي مملكة التيه مجبور الخاطر، محظياً باحترام الناس أكثر مما بشفقتهم، لكنه غاب عنا. فقدناه. يحدق بنا كأنه لا يعرفنا، يرى كلامنا ولا يسمعه.

قالـــت أمـــي أن "زواج البنات يهد الجبل" رغم أنها هي التي أصرت، بعد أن أوانا أكرم مسكنه الذي كان بتقديري رائع التأثيث "إلـــى حد مخيف"، أن يشتري لي أبي حجرة نوم جديدة لأني على حـــد قولهـــا "بنت بنوت" لابد لها من فراش مهيب لم تمسه يد من قـــبل، وعند تاجر الموبيليا استدعت كل ما بذاكرتها وبمخيلتها من مواصفات لحجرة نوم فخمة دافعة أبي لأن يبيع جزءً من الأرض، هي التي ظن عمي الصغير خدعه بشأنها "رغم عدم امتلاكه لأي دليل قاطع على ذلك".

صـــدمة أبي هي التي جعلت اكتمال ولوجه "الذي بدأ منذ ما يقـــارب العقدين" من عالمنا مبرراً ومحترماً بعيداً عن الشفقة التي كانـــت ســـتنال مـــنه لو علم الناس أن السبب الحقيقي لاضطرابه وإحـــباطه هـــو رفض كتابه "طويل العمر أيضاً إذ احتاج لإنجازه ســـنوات طـــوال واضعاً فيه خلاصة قراءاته واستنتاجاته" من قبل الناشـــرين. كمـــا أن الانسحاب بذلك الشكل هو ما سيجعل تكالب أخويّ على ما تبقى من مقدراته مبرراً ومحترماً هو الآخر.

على الرغم من توحده بذاته ونكباته لسنوات طويلة كان ذهنه المتوقد وإن في الجانب البعيد عنا ملموساً ومطمئناً قبل أن يباغتنا أبي و"يتجلى" أمامنا في اللحظة الحاسمة، يقرر معنا وأحياناً لنا ما

t.me/qurssan

يتوجب فعله، لكنه بعد هذه الصدمة غاب كلية. أشهر المرفأ الذي كنت أتخيله ملاذاً لي من ويلات الزمن إفلاسه مبكراً.

كنت مأخوذة بحياتي الجديدة فلم يستوقفني كثيراً ما كان يحدث في تلك الفترة..

- أبوكِ بيضيع منا. قالتها أمي مسندة رأسها على كفها باستسلام يائس دفعني للذهاب في التو لمكتب الأستاذ الذي أصغى إليّ دون أن يحاول إخفاء ابتسامة ثم قال:

- أبوكِ زعلان على أرضه! إذا كانت أراضي الدولة نفسها بتروح كل يوم عيني عينك بوضع اليد.

أشهر أستاذ القانون إفلاسه فاستنجدنا بأستاذ الطب الذي وصف لأبي أربعة أنواع من الحبوب، سيكون واحداً من المحظوظين بعدم استعمالها طويلاً، لأنه سيستعيد وعيه في وقت قياسي وسيكون ذلك من سوء حظ البعض.

توقفت سيارة الإسعاف تحت بيتها.. عبروا بالمحفة المخيفة التي تحملها من بوابة البيت إلى باب السيارة وألقوا بها داخلها.

قالت فرح بنبرة يكتنفها الأسى: الست إنجي! غلبانة والنبي.

تذكرت اسمها فقط في تلك اللحظة لكني لم أنسَ قط قميص نومها الشفاف وضحك جدتي. استطردت فرح:

- قالوا اتجننت. عيالها جننوها عشان يحجروا عليها.

ضحكت بأسى وهي تكمل: - أصلهم خايفين تتجوز.

قلت: تاني؟ ردت:

t.me/qurssan

- تانـــي إيه؟ قولي خامس. سادس. ثم تابعت بهدوء: والنبي غلبانة. يعني لو ارتاحت مع واحد عمرها ما كانت تسيبه.

لـــم تواتنـــي الفرصة لزيارتها، كان يجب أن أذهب إليها بباقة ورد وأتعـــرف نغمـــة صوت هذه المرأة التي أثارت فضولي في السابق كثيراً ولم يعد لديّ الآن وقت لها. لكني لم أفعل ذلك سوى بعد فترة.

كنت مأخوذة بحياتي الجديدة.. بالرجل الذي صار حباً وزوجاً وحـــياة.. أكتفي بزيارات خاطفة لأسرتي يقبلها أكرم على مضض لأنهـــا تقتطع ساعات من وقت كان قد قرر إعماره بتنظيم فولاذي دقـــيق لاســـتغلال الأيـــام والساعات، ومصارعة الزمن الذي لا يصرعه أحد.

أعـــترف بـــأن بهاء كهولته كان يخجلني من خمول شبابي، شغوفاً بالحياة، يخشى أن تنسل لحظة من بين يديه دون أن يعيشها حـــق العيش ويستمتع بها ما استطاع، كل يوم هو مشروع جديد.. لرحلة، سهرة، سفر أو سباق من أي نوع.

الـــرجل الذي جعلني أرى الحياة بعيون جديدة صرت أحيا به ولـــه، صرت شغوفة أكثر فأكثر بالرغبة في إسعاده، تركزت كل طاقاتـــي عند بؤرة العطاء وأخذت في الركض خلف رغباته كأم تدلـــل طفلها. صارت طموحاتي وعاداتي السابقة كلها تتساقط من حولي دون أن أعيرها انتباهي، وبدا لي أن اقتطاع جزء من وقتي لشخصٍ أو لأمر آخر خيانة يجب تداركها.

t.me/qurssan

كنـــت مـــندفعة كالمحمومة أريد أن أثبت لنفسي قدرتي على الحب والعطاء، أن أجزل العطاء كي لا أخسره كما خسرت الذين ربما لم أحبهم ما يكفي.

من الركض نهاراً إلى الركض والاشتباك في الفراش ليلاً ثم الغرق في النوم، لكني سأستيقظ ذات ليلة بعد برهة قصيرة، أكدت لـــي قصـــرها رائحـــة الليل ذاتها التي كانت بأنفي حين غفوت. وجـــدت نفســـي عـــند قمـــة منحدر جعلتني أرضه الزلقة أهوي. صـــحوت فـــزعة من حلم يراه كل شخص تقريباً. أوقدت ضوءا خافتاً قرب الفراش وعدت لأنام. الضوء الخافت سيمنحني فرصة لكي أتأمل جسده النائم، أتأمل جسده الممنوح دون مراوغة ونومه الساكن والمستسلم.. لي.

هل هذا الرجل وافر الرجولة في نومه كما في صحوة صار لي؟

هذا الذي يكرر أحبك كأنه يعوضني عن السنوات التي عشتها منذ عرفت ما الحب أحلم بسماع هذه الكلمة.. هو رجلي؟

زوجـــي الـــذي يرتاد أماكن كثيرة جديدة "نوادي"، منتزهات، مسارح" لا يعرفه فيها أحد وحين يغادرها يكون معروفاً للجميع.

هذا هو رجلي الذي صرت أحيا به وله وضده أحياناً..

ستنهض بداخلي فجأة قوافل الكلمات لتشكل ألواناً من التساؤل والشـــكوك لأســـباب ربمـــا تبدو بسيطة لكنها تبعث مخاوفي فلا أتوقف عن الصراع مع نفسي.

t.me/qurssan

لزوجـــي معـــارف عديدين لكني لم أعرف له صديقاً حقيقياً واحداً.

زوجـــي الذي حين أسأله عن حياته السابقة يحكي عن مدائن ارتادها ويصف أحداثاً وقعت ولا يحدثني عن نفسه، يحكي عن ما حوله وليس عن ما بداخله.

هـــذا هـــو رجلي الذي أحب أن أتأمل فمه الذي يجيد التقبيل ويجـــيد كذلـــك مـــراوغة أسئلتي والتملص من إجاباتها بعبارات قصيرة فضفاضة.

هـــذا هـــو زوجي الذي يقول "أحبك" ليل نهار، يرددها لسانه بـــنفس الســـخاء الـــذي تنفق به يده المال دون حساب وأخشى أن يكون دون قيمة أيضاً.

زوجي هو "رجل هذا العصر" الذي ليس من المدهش ولا من العسير عليه أن يكون هنا وهناك في نفس اللحظة.

هـــذا هـــو رجلي الذي أطوقه بذراعي وأنام في نومه، أتنفس أنفاســـه، وأستشـــعر الأمان في كنف رجولته الوافرة، لكني حين سأستيقظ لن أجده بجواري.

* * *

t.me/qurssan

لا أحد يعرف ما يعنيه الانتظار..

عينك تلاحق عقارب ساعة الحائط، يدك منطوية على خوانها عند الهاتف وأذنك ترهف السمع قرب الباب عله ينفتح.. هكذا تشتعل حواسك في الانتظار.

في البداية: ربما حدث شيء.. ربما يتصل.. ربما يأتي الآن. لكنه لا يتصل ولا يأتي. يتقمصك الغضب.. منه ومن نفسك ومن مزاجك عندما اخترته وحده لتحبيه. تثورين عليه.. على استهانته بك.. على استهانته بنفسه وبالحياة، حتى تصلي إلى القناعة بأنه كان أسوأ اختيار بحياتك، بل أسوأ ما حدث بها على الإطلاق. "عندما يأتني سوف أرد الاعتبار لذاتي، سوف أجعله يدفع الثمن غالياً، سوف..."

لكن الباب لا ينفتح، تفقدين أثره، ترسخ الوحدة وجودها داخلك، تتضاءلين، تصبحين طفلة تلح في طلبه، ويشملك تسامح غريب: "فقط أن يعود، ولن أفتح فمي.. لن أحدثه بشيء، لن ألومه على شيء". تبقين عالقة في انتظارك حتى تسمعي صوت خطواته، تركضين نحو فراشك، تختبئي كي لا يكشفك وجيب قلبها.

في الأيام التي كنتِ تعتبرينها سعيدة.. تشعرين بخطاه مترددة خجلة، يستلقي بجوارك، يمرر يده فوق كتفك ثم يطبع قبلة فوق خدك بحنان وهو يحكي بلغة يغلفها الاعتذار تفاصيل ليلته.

t.me/qurssan

في الأيام الأخرى.. تشعرين به يزفر الصمت، يواجه ظهره ظهره في الفراش بظهره، ليتمدد بينكما فضاء ضارياً من الغرابة لا يجرؤ أحدكما على عبوره.

إذا كان انتظار الساعات هو نار ملتهبة ففي الانتظار الطويل يغمر الثلج كل شيء.. سيخمد تحرق الساعات في جمود الأيام، وتصبح الشهور موت بطيء، هكذا تتبلد حواسك حين يطول الانتظار ويضيع المعنى.

ستفاجئين بأنك توقفت عن حساب الأيام في انتظار عودته كما كنت تفعلين مرات سفره الأولى، الآن صرت ترسمين الخطط لحياتك الانفرادية، حتى لو لم تتجاوز تلك الخطط أو تلك الحياة زيارة صديقاتك ومشاهدة الأفلام.

ستفاجئين بأن اتصاله الذي سيخبرك فيه أنه عائد في اليوم التالي صار يربكك أكثر مما يفرحك.

حواسك لن توقظها سوى شكوكك حول الأسباب الواهية لسفره كما حدثك عنها، ستتسابق الهواجس والظنون لتشعل فيك النار حين تتسلل إليك مثل أفاعي صغيرة وخبيثة تلدغ ولا تقتل، من كل مشهد أو حوار عن رجل وامرأة.. زوجين أو عاشقين، من نظرات وإيماءات تثير التعطش والتحرق والتذكر..

في كل مرة تحدثينه برغبتك في السفر معه يراوغك متحججاً بالظروف التي لم تصبح موائية بعد، في كل مرة ترجينه ألا يسافر، يعدك: ستكون آخر مرة.

t.me/qurssan

يفاجئك ألم، مثل طعنة واحدة عميقة تبدأ من منتصف رأسك، ليسري خطها موازياً لعمودك الفقري، ليستقر بمنتصف المسافة بين أسفل بطنك وظهرك. تقول صديقتك التي تكبرك بسنوات عديدة أنه اضطراب الهرمونات.

تتحركين بألم أسفل الظهر ومزاج كئيب، تتأملين نفسك وظنونك في المرآة.. "لماذا تبدد حبه لي؟ لو مازال يحبني لما تركني وسافر". لكنه لم يعد معك لتستجوبيه، لم يعد معك لتقرئي الصدق من الكذب في عينيه.

"ماذا يفعل هذا الرجل هنالك وحده؟ بدوني! بدون.. امرأة!"

تلتهمك الظنون والحقد والغيرة حين تتذكرين ما كانوا يقصونه عن علاقاته العديدة، حين تتخيلين يده تلمسها امرأة سواك، شفتيه تقبل سواك، أو حين تفكرين بأنه قد لا يعود. في الانتظار لا نموت ولا نحيا..

ستخبرك صديقتك وهي تضحك بأنه لو كان يفكر كما تفكرين لما تركك وسافر.

تتساءلين: من هذا الرجل الذي يبدو كأنه لا يخشى أن يخسر حبي بطول غيابه؟

لن تجدي جواباً ولا خلاصاً من حشود التساؤل.

* * *

t.me/qurssan

هــذا الصــباح اســتيقظت مستريحة لا يؤلم رأسي الصداع اليومـــي، ولم تتذبذب خطواتي فأجد نفسي في مكان غير ما أنوي التحرك نحوه بل توجهت مباشرة إلى قفص الكناري الذي أحضره لـــي أكـــرم.. وضعت الحَب في "الغذاية" ونظفت "المسقى" وملأته بمـــاء جديد عندما كان الذكر، الذي كنت أميزه بريش كثيف فوق عنقه، يتابع حركتي محاولاً قطع الصمت الذي خلفه انشغال الأنثى بزقزقته الجميلة. صارت تمكث ببيت الرقاد لتعتني ببيضها فتدفئه بحـــرارة جســـمها الحمـــيمة ثـــم تقلبه وتقويه. يستمر الرقاد بين أســـبوعين ونصـــف إلـــى ثلاثة أسابيع حتى يتم الفقس، وتخرج الصـــغار رقـــيقة هشة تحدوها الأم بعناية رحيمة يساهم الأب في قسط منها.

توجهت إلى المطبخ وفتحت الثلاجة، أخرجت الدقيق والبيض والبـــن ثم أضفت لهم بعض السكر لأخبز نوعاً من الحلوى يحبه أكرم.

"جدتك خلت ذوقك في الأكل بلدي.. الله يرحمها بقى."

يكـــون ذلك هو التعليق التقليدي لأمي وهي تعيد للطبق قطعة البســـكويت الـــذي أكـــون تعبت كثيراً لأعده لهم مقضومة قضمة صـــغيرة دون أن تكملها. وسواء الحلويات الشرقية أو الغربية فلن أدعي أني كنت أتقنها أو أميل لها لولا روح الأم التي بدت سارية فـــي دمـــي بعد أن رفعت الطبيبة نظارتها نحو عينيها وقالت: في ثديك لبن. غير متحسبة للدهشة التي قفزت من عينيّ ليليان قبل أن تقفز من عينيّ.

t.me/qurssan

ليلـــيان زارتني قبل أسبوع، أثنت كثيراً على جمال البيت .. جلســـت تحدثني عن الوظيفة التي حصلت عليها بعد بحث مضن فقـــد صـــار الحصول على وظيفة من أشق الأمور، كنت أسمعها بنصـــف أذن لأن ملامحهـــا الهادئـــة الجمـــيلة استغرقت عيناي وأفكـــاري. ليلـــيان مازالـــت ترفض الزواج، لما رأته من معاناة المتزوجيـــن حولهـــا، وترفض الحب لأنها تعتقد بأن فشل زواج الحـــب أكثر وقوعاً من فشل الزواج التقليدي، وللأسف لم أستطع أن أقدم لها نموذجاً يحملها على تغيير أفكارها.

انتبهـــت وهـــي تشـــير بسبابتها نحو صدري.. لاحظت بقعه دائـــرية صغيرة في موضع حلمة الثدي حين كانت تخبرني بجزع عن مرض معروف يمنع الإنجاب. فكرة أن أصبح أماً لطفل كانت بدرجـــة كبـــيرة لا تعنيني وللصدق تزعجني أيضاً، ربما لأني لم أمـــتلك أبـــداً هذه الثقة بذاتي في صلاحيتي لأن أربي طفلاً، كنت أخشـــى أن أظلمه مرة بالحماية المفرطة وأخرى بالإهمال فأكرر معه ما فعلوه بي ومعي ومن أجلي.

كـــيف يمكننـــي أن أصير أماً ترشد إلى الصواب وتحذر من الخطأ وأنا نفسي لم أمتلك يوماً يقيناً؟

ضـــغطت الطبيبة الاختصاصية بأمراض النساء ثديي فاندفع خـــط رفـــيع مـــن سائل فاتح اللون، رفعت نظارتها نحو عينيها وأخيرتنـــي أنـــه لبن.. كان ذلك أغرب ما سمعته على الإطلاق، طلبت مني فحصاً للدم وبعد أن طوت الأوراق التي تحوي نتيجته مســـاء أمس نظرت نحوي مطمئنة ومشجعة.. تحدثني عن كيمياء

t.me/qurssan

ـسـدي، أخبرتني أن دمي تسري به مادة اسمها "برولاكتين" هي ـفسها المادة "الهرمون" التي تجري اللبن بأثداء الأمهات فيرضعن أبناءهن بامتنان ومحبة. أخبرتني أن هرمون الرضاعة حين يرتفع ـنخفض أمامـه "كـرد فعل له" هرمونات الإخصاب فلا تحبل المرضـعة قـبل أن يكف الوليد عن اعتماده عليها.. "نظام تلقائي بجسم المرأة يعتبر اختلاله مرضاً".

ظنـت ليلـيان أن مـا غمرني من ارتياح يعود لإدراكي أن عقمـي مؤقـت ستخلصـني منه علبة من الحبوب أتعاطاها لعدة شهور. كل المواقف التي جمعتني بليليان كانت تؤكد لي أننا مهما سـلكنا دروبـاً تـبدو مختلفة نكتشف في النهاية أنها ليست سوى تفرعات لأصل واحد، توصلنا لنفس النتائج، ففي تلك اللحظة كنت أفكر بأمر آخر.. بزواجي الذي كان على وشك إعلان الحداد على نفسـه، حسبت أن بإمكان الأم المعطاءة إنقاذه.. وحدها الأم قادرة علـى التسـامح المطلق، على قبول ابنها بعيوبه وعاهاته، وحدها الأم ترى وليدها قمراً حتى لو كان مسخاً. كنت بحاجة لتلك الروح لإنقـاذ زواج ربما ساهم في هلاكه عقلي الناقد ونفسي المتحسسة مـن أبسـط الأشياء. رحت منذ تلك الساعة أتنفس فيدخل الهواء صـدري ولا يخـرج بـنفس القـدر، وشعرت بأني أتضخم كما الأمهات وأشع حناناً، لذا أعددت له حلوى لعلنا إذا اجتمعنا حولها تقاربنا مجدداً..

أين ذهب الافتتان الذي كان يكنه كل منا للآخر؟

t.me/qurssan

الغداء الذي جمعنا في موعد العشاء كان طيباً والحلوى كانت أطيب لحسن الحظ. جلس صامتاً على حافة الكرسي كأنه على وشك أن يغادره.. خفت صوته الرنان وكف عن ضحكه القديم، صرت أشعر به معي وليس معي. حديثه مختصر، وجوده شفيف كطيف. مد يده وضغط الزر فأضاءت الشاشة، ظل يضغط فأخذت الأصوات والصور تدور مع تبدل القنوات بشكل شحد غضبي، فيما كانت يده الأخرى تقلب صفحات مجلة قديمة. كنت أشعر بانقطاع خيطي الأخير وشيكاً، بسبب الغضب، لولا أني لملمت بقايا تعقلي بفضل الأم الحكيمة، اقتربت منه وانحنيت قبالته وقبلته قبلة طويلة.. شعرت به يسترخي قليلاً.

استدرجته إلى الفراش بحجة ألم ظهري من طول وقوفي بالمطبخ "كان ظهري يؤلمني لكن ذلك لم يكن السبب في استدراجي له". كنت قد قررت أن أهزم الليل الذي يسرقه مني ولو لمرة واحدة. يبقى فيها معي ولي.. لي وحدي.

قبلت عنقه المتلوي فاقترب معني، كان سلوكي مدهشاً له ولي بعض الشيء.. كنت أسعى لإشعال سعير رغبته، لإبقائه على شفير الوجد المحموم لأطول فترة ممكنة، باستدعاء كل ما خبأته ذاكرتي في طياتها العميقة من صور لحواء المغوية، كي أستعيد حبه، كنت على استعداد لأن أتضاءل أمام كل خلية من خلاياه، أن أفعل أشياء ربما لا أرغب في فعلها، وأخرى ربما أخجل منها كي أفوز بروحه حتى لو للحظة واحدة، كنت أرغب في مقايضة عدة سنوات من عمري نظير أن أرى بعينيه مجدداً ذلك الوله القديم،

t.me/qurssan

لكـــن الفرصة لم تواتني لشيءٍ مما أردت.. إذ اندفع نحوي بحمى صاعقة سرعان ما خمدت.

غفـــا جزءٌ من الساعة لم تطرف خلالها عيني.. بقيت أتأمل حضوره الموشك على التلاشي وأدركت كم أريد حبه، وكم أخشى خسرانه.

نهـــض متـــثاقلاً، وحين أدرك الوقت ارتدى ملابس الخروج مســـرعاً، لم يكن ذاهباً للسهر مع أصدقائه كما ظننت، أخبرني أنه سيســـافر لبلدتـــنا بشكل عاجل ليودع أخواته لأن سفره تقرر بعد ثلاثـــة أيـــام. استفسرت منه إن كنا سنسافر معاً فكرر إجابته التي اعتاد أن يبرر بها تخليه عني في كل مرة.

- الظروف غير مناسبة.

شـــعرت بأنفاســـي تسحب الهواء خارج رئتيّ، ولم أقوَ على تذكـــيره بوعـــوده الســـابقة، لم أقو على مواجهته بما أخبرني به زمـــيله، من أن سفره غير حتمي كما يتظاهر، وأن بإمكان زملاء عديدين بنفس الشركة القيام بتلك المهمة بدلاً منه.

لم أكن أبغي أن أكن الزوجة النكدة المعقدة، كنت أريد فقط أن أفهم ما يجري.

تغلبـــت على شقوتي وحدثته عن لقائي بالطبيبة عندما، كنت آمل أن ذلك قد يبدل موقفه، قد يضعه أمام حسابات جديدة، متغافلة عما أضيفه لخسائري إن تمسك بزواجنا لهذا السبب وحده. أصغى إليّ بانتباه ثم قال بصوت حيادي بارد دون أن ينظر نحوي:

- مبروك مقدماً.

t.me/qurssan

ظننـــت أننـــي فقدت صبري بل صوابي حين فكرت أن أنتقم مـــنه بإشـــعال غـــيرته.. أن أريه الهدية التي قدمها لي نادر في زيارته الخاطفة قبل عشرة أيام، سألني: من نادر؟

كنت على وشك أن أجيبه: زميلي الذي حكيت لك عنه. لكني عدلـــت. نعـــم هو على حق، هو لا يعرف منتصر ولا نادر ولا جدتـــي، لا يعرف من شقيت معهم وبهم ولأجلهم، بشكل أدق.. لا يعرفني أنا نفسي.

تـــبخرت الأم المعطاءة والأخرى الحكيمة والمتسامحة كذلك، وصـــرت أشعر بروحي تجف كأن الشمس سقطت عمودية تماما فوق رأسي، استجمعت قواي وقلت له بهدوء:

- لو مُصر تسافر لوحدك يبقى ننهي جوازنا الأول.

أخـــذ شـــهيقاً عمـــيقاً وزفيراً أعمق وهو يجلس على كرسي قريب..

بعـــد جـــدال طويل كنت أتراوح فيه بين الصياح والسخرية والـــبكاء، بيـــن الـــزوجة الغاضبة والابنة المتعنتة، بينما بقى هو متشـــبثاً بموقفه غير المبرر قبل أن ينطق أخيراً بعبارة حاسمة.. بقـــي جـــزء مـــنها معلقاً بهواء البيت المثقل بالغضب بينما تناثر الجزء الآخر فوق درجات السلم حين كانت خطواته تبتعد:

- اعتبري الطلاق حصل خلاص. أنت حرة.

أردت أن أركض لأناديه، لأصالحه. ولم أفعل.

بعد أن اختفى ظلت الأفكار تتلاعب بي..

t.me/qurssan

لابـد أنـه يحبني.. ألم يغير حياته بالكامل لأجلي، ألم يعبر كثـيراً مـن الأسلاك الشائكة لأجلي؟ أليس هو الوحيد الذي اقتحم حياتـي بهـذه الجسارة والإلحاح؟ نعم، كل ذلك صحيح، وصحيح أيضاً أن مشاعره نحوي تبدلت كثيراً.. لماذا؟

أعرف أنني أحبه، فهل كنت حقاً أريد إنهاء زواجنا؟ لا أبداً، لكـنه ألقى بي في وضع لا يحتمل. وقد يدفعني عنادي واعتزازي المـزعوم بذاتي إلى التمسك بخياري حتى لو فيه هلاكي، حتى لو كنت سأفقد هذا الرجل الذي لا يبدو عليه أنه يأبه كثيراً لفقدي، هذا الذي رحل تاركاً لي نصف عبارته في سجن بغيض تطبق جدرانه عليّ.. وحدي.

راح خـيط الحكايـة يكر بي رواحاً وإياباً في دوامة لا فكاك منها.

أين ذهب الرجل الذي شعرت في أول لقاء به أني أعرفه منذ سـنوات عديـدة؟ وكـيف جاء ذلك الذي يمنحني وجهاً كاذباً منذ عامين كاملين؟

اكتشفت أنها كانت المرة الأولى التي أصرخ فيها وأحتج عليه بهـذا الشـكل، وأني كنت من البداية تلك الأم التي أخذت أتوسل مسـاندتها مؤخـراً، تلك التي لم تظهر له يوماً انتقاداً أو استياء، دائماً كنت أقذف بمخاوفي إلى أغوار كتماني السحيقة كي لا أعكر صفو علاقتنا، لم تكن العلة في عقلي الناقد كما كنت أظن، بل في مكان آخر..

t.me/qurssan

جعلتني مخاوفي أنتفض لأفتش في أغراضه، أبحث عن شيء لا أعرفه يفسر لي موقفه مني، كنت أشعر بكهرباء جسمي تتزايد وأنا أفتش جيوب ملابسه كالمصعوقة، أفتش حقيبة أوراقه، أنفض كتبه واحداً إثر الآخر لعله ترك بأحدها ورقة مطوية تفك شفرة شكوكي، أدور مثل نحلة، أبحث في أوراقه، ثيابه، ميدالياته، جواربه، في العطور التي كان يتهافت على شرائها ثم يأنف استعمالها بعد وقت قصير لعلي أجد أثراً يجسد صورة معاناتي، لكني لم أجد شيئاً، لم يكن هنالك من شيء على الإطلاق.

جلست منهكة تماماً ومفتتة الفكر.. أفكر في رحيله، في خوائي منه وندمي عليه.

تجرفني شكوكي ومخاوفي بين طرفيّ الخيط بكل قسوة.. من إدانته إلى إدانة نفسي، من الرغبة في الانتحار إلى الرغبة في قتله، نعم أقسمت أن أقتله.

فتحت صندوق الصور فهاجمتني جيوش النوم.

* * *

t.me/qurssan

لماذا لم أخبره عن زيارة نادر؟

نـــادر الـــذي لم أره قبل أكثر من ثلاث سنوات شعرت حين رأيـــته أنهـــا كانت ثلاثين عاماً فقد نالت منه الحياة كثيراً وصار شـــكله أكبر من عمره بكثير، لكنه لم يعد متجهماً ولا ساخراً ولا ساخطاً بنفس القدر.

بكلمـــات مقتضبة حكي لي عن دراسته وحياته بالخارج، كان مأزومـــاً فالقرن اقترب من نهايته ولا يزال الجوع يهدد أكثر من نصـــف سكان الأرض بينما المرض في كل مكان. فمسيرة العلم مكتظة كما يقول بمطبات أبسطها تحسب الخائفين، وأعمقها تهافت مـــن يطمحـــون لاستثمار كل شيء، حتى كوارث البشر. أطرق صامتاً لفترة يحدق بعينيّ قبل أن يقول:

- آسف. نظرت متسائلة فقال:

- حاســـس إنـــي خذلتك. ضحكت، ربما بشيءٍ من المرارة لكني ضحكت وأنا أقول له:

- يا عم نادر ليه الكلام الكبير ده؟

- فيه حاجة مهم أنك تعرفيها، أنا خسرت أكثر.

أعـــرف أننا جميعاً نخسر في الحياة، أعرف أن المحظوظين فقـــط لا يخسرون أشياءهم الثمينة، لكني لا أستطيع أن أجزم بمن خسر أكثر، خاصة وأن ذهني المرتبك لم يمكنني من أن أفهم على وجه التحديد أي الخسارات كان يعني؟

ظللـــت صـــامتة، عينـــي على الأرض.. إذ ألقى بي حديثه المقتضب الملغز في متاهة بعيدة لم أكن مهيأة للخوض فيها.

t.me/qurssan

ظننـــته ســـينهض حين ضغط يد الكرسي بيده محركاً ركبتيه للأمـــام، لكنه تراجع كأن يداً دفعته فألصقته بمكانه، وراح يتكلم، يتكلم ويصمت، يصمت ويبكي، يبكي ويتكلم وأنا منصتة له ولبكاء أعماقـــي، أريـــد أن أحكـــي له عن معاناتي أنا أيضاً فأخجل من مقاطعـــة حزنه وانفتاح قلبه لي في تلك اللحظة، لذا تنازلت له عن هذه الصفحة بذاكرتي عن طيب خاطر.

"لازلـــت أتذكـــر الولد، الذي دخل المدرسة بحذاء تدهنه أمه بالورنـــيش كل يوم ليبدو لامعاً، وبمريلة كانت تحرص أن تكون نظـــيفة، واقفـــاً بهدوء يجيب أسئلة مدرسته التي اندهشت من دقة كلماتـــه وبلاغة أسلوبه. ستترك الطباشير من يدها، وتخرج لتعود بزميلتها مدرسة الفصل المجاور، طالبة منه أن يعيد أمامها إجابته فيفعل ذلك بنفس الوتيرة ودون تردد، لأنه سيلمح في أعينهما وعداً بمستقبل مبشر، مشابه لذلك الذي تحلم به أمه مؤكدة أنه يستحقه.

كانت أمي فخورة بي، تراني رائعاً في كل شيء، الأكثر ذكاء والأفضـــل خلقاً والأكثر شجاعة، كان تصوري عن ذاتي كما أراه بعينـــيها إيجابياً ومفعماً بالثقة، فبيدها أوصلتني أمي لباب المدرسة بأمان.

شـــغفي بـــالعلم وتفوقـــي الدراســـي مع تحرري من الأنانية والغـــرور، كـــل ذلـــك هيأني لأن أكون كبيراً ومقدراً بعينيّ أمي ومدرســـتي التـــي ظلـــل حسن تقديرها لي علاقتي بكل العاملين بالمدرســـة بدايـــة مـــن مديرها وانتهاء بالبواب ومروراً بمدرسي الرســـم والألعـــاب، كما منحني ثقة وثباتاً سيتأكدان من صف إلى

t.me/qurssan

صـف مع نتيجتي كأول للفصل والمدرسة كل عام". وراح يحكي عـن الصدفة التي أوجدته بالشارع ذلك اليوم بعد دخوله الجامعة بثلاثة أشهر، وبعد استقراره في مسكن مناسب بثلاثة أيام.

"الفضـول وحـده هـو الذي زج بي وسط كتل بشرية، رفع الغضـب رنيـن صيحاتها، جاذباً رغبتي في الاقتراب من وجوه وأصـوات تشـابهت رغـم اخـتلافها، وتعارفت دون أن تحدث بعضها، كان هنالك ما رأيت وما وددت أن أعود لأخبر أمي عنه، وبدلاً من البيت اكتشفت وجودي مع كثيرين لا أعرفهم، في حجرة مغلقـة أخبرونـي أنهـا زنزانة، ستمر الأيام داخلها بلا أسماء، وأخبرونـي أن العـالم صار أبعد من الحلم، ولم أعد بحاجة لأن يخبرونـي أن اسمي صار مدرجاً في قائمة طويلة لمتهمين بقضية من ذلك النوع الذي تضلل المرء أفكاره إذا حاول أن يتخيل حياته بعدهـا، لأن المظلة التي وجدت لحمايتي صارت تستهدفني، ولأن الهواء الذي أتنفسه صار مغدوراً.

أنـت لا تعرفين الشعور بالضآلة ولا فقدان احترام النفس لأن صـفعة واحـدة لا تجدين لديك الشجاعة لردها ستقوض كل ما تم بناؤه من تصورات إيجابية للذات، لأن عصا صغيرة توقعك، ويداً تمـتد لـتدفعك وراء القضـبان، سـتنهي وجودك الذي تعرفينه لتصيري لا شيء.

لـن أضـع ساقاً فوق ساق وأحدثك عن الفوائد العظيمة لهذه الـتجربة التي أتى حكم القضاء منصفاً لجميع المتهمين بها ومديناً

t.me/qurssan

للأسباب التي دفعت الناس للخروج على هذا النحو ومعيداً كل شخص لحياته السابقة.

هناك من فقد أشياء أو أشخاص وهناك من أصيب بمرض في نفسه وسم حياته التالية بوهم البطولة الذي يجعلهم عاجزين عن التحقق سوى بجيشاناتهم الخطابية الفارغة التي كانت الوجه الآخر للعجز المقنن بيديّ الخوف والإذلال. وهناك من لم يستطع العودة لدراسته مثلي، سوى بعد سنوات استغرقها استيعابه للعالم الذي صار يراه جديداً، سوى بصدع في نفسه سيجعلني أحتمل سخريتك من عيني التي ترى كل شيء حتى قبل وقوعه، ترى كل شيء بالحجم الطبيعي لكنها ترى الخوف وحده بعدسة مكبرة، لأني أدرك أن ما حدث لي يثير الشكوك، بالغاً بزملائي بكل أسف حد تصديق ما أثير عن تفاهم بيني وبين إدارة الكلية حول انسحابي مقابل تعييني معيداً بالجامعة.

لم يكن ذلك صحيحاً، أنتِ تعرفين أن انسحابي كان صورة أزمتي، أما هم فكانوا يخافونني رغم كل ما أصابني، يخشون شغفي بالعلم الذي يكشف زيف وخواء أولئك الذين يرتعدون خلف مكاتبهم متأهبين لتغيير أفكارهم وآراءهم في أية لحظة، خشية فقد هذه المكاتب التي ستنأى بها خطواتهم بعيداً عن مشاغل العلم الحقيقية. تلاعبوا ليسقطوا حقي في التعيين، لأنهم لن يرتاحوا لوجودي بينهم، وأصابوني بجرح أعمق من الأول.

كان لابد أن أترك البلدة وأذهب لأضيع مع الضائعين في العاصمة المزدحمة بالجرحى والمحبطين والمشوهين، بعد أن

t.me/qurssan

صـــارت روحـــي مسرحاً لصراعات لا قدرة لي على احتمالها، ســـوى بـــالولوج إلى فضاءات العوالم الغريبة التي ستحملني إليها المهدئـــات والمـــنومات وأنـــواع أخرى من العقاقير قبل أن تبزغ فرصة السفر للدراسة التي هي حلمي.

تعرفين أنني أحببتك، وأنني كنت نفسي بالفعل في ذلك الوقت الـــذي اقتربـــت فيه منك، كنت نفسي التي فقدتها طويلاً، لكن يداً صفعتني وأبعدتني عنك وهي تقول لي:

- لســـت مؤهـــلاً للحب، لست مؤهلاً لتحبك هذه البنت التي لابد أنك لا تبغي تشريدها معك وربط مصيرها بمصيرك.

لـــم يكـــن أمامي سوى استعادة ذاتي خطوة بخطوة، وهذا ما منحـــته لـــي الدراســـة التي أخذت تعيد بناء يقيني وتؤهلني لهذه اللحظة من الوضوح التي أحدثك فيها الآن.

ســـأبقى ممتناً لك، لصداقتنا التي فتحت أبواب قلبي الموصدة، ولمنتصـــر الوفي الذي لم يتخل عني ولصديقته إنجي التي دعمت حلمي وبذلت جهوداً كبيرة لتساعدني على السفر".

لأنهـــم يكـــرهون الادعاء محاولين تحصين أنفسهم كل لحظة ضـــد الـــزيف. *لأنهم* لا يمتلكون شفرة وراثية واحدة، لكن شفرة وجودهـــم تـــدل عليها عيونهم المفعمة بالرجاء، واشتهاؤهم لعيش أفضـــل، سيبقون دائماً نجومي الأليفة. سألني وهو ينهض: سعيدة في جوازك؟ أومأت له برأسي أن نعم.

اتجه نحو الباب وهو يقول: ده أكثر شيء يسعدني.

t.me/qurssan

قمـت لأودعـه، كنا قريبين من بعضنا بسبب ضيق الصالة بالأثـاث والـتحف والأشياء الكثيرة، فتحت الباب فبدا متردداً في الخـروج، شعرت بذراعيه تمتدا نحوي وتطوقاني فجأة، استسلمت أنـا الأخـرى لعناقٍ قصير، عفوي وحميم لم يجعلني أنتبه للباب المفتوح وما كان يمكن أن يثيره من مشاكل.

بعـد أن أغلقـت الباب جلست وبكيت. الحقيقة أني لم أشعر بالذنب مطلقاً، لم أشعر أني أسأت لزوجي بأي قدر أو بأي معنى، كان عناقاً فريداً خالياً من أي شيء حسي، كنت كأني أعانق جزءً أصـيلاً مـن نفسـي، مـن عمري، من أيام رغم مرارتها تبقى عزيزة.. كالحياة، نعم كنت أعانق جزءً من حياتي لم يعد موجودا، ولم يعد من الممكن أن يصبح موجوداً مرة أخرى، ولم أعد أرغب فـي استعادته الآن. عرض مساعدتي في أي وقت، في أي شيء، دون أن ينسـى أن يـترك لـي مظـروفاً أخبرني أن به ورقتين إحداهمـا عنواناً لوظيفة يرى أنها تناسبني، أما الأخرى فهي اللغم الـذي سأبقى لفترة طويلة أخشى أن أمسه فينفجر جرحي.. عنوان منتصر.

زيـارة نـادر لم أتعمد إخفاءها عن أكرم، لكن الجفوة القائمة بينـنا هـي التي جعلتني أشعر أن الأمر لن يعنيه، ومازلت أشعر بذلك، مازلت أتوجع بالتساؤل: لماذا؟

* * *

t.me/qurssan

أرى الدنيا تبتعد عني والبحر يشتعل..

قالت أمي أني نمت أربعة أيام وخمسة ليال، كانت بالقرب مني حين استيقظت أدوية ومحاليل وإبر قالوا أنهم كانوا يغذون بها أوردتي لإبقائي على قيد الحياة.

تذكرت قبل أن أتحرر من وهم الموت جيوشاً من النوم هاجمتني ثم راحت تأكل جثتي حين أخبرني أحدهم بسفر أكرم.

تذكرت هذياناتي.. في إحدى اللحظات أرى نفسي بعينيه أحلى النساء وأشهى النساء، وفي اللحظة التالية أراه يشيح بنفس العينين عني بازدراء.. كأني لست امرأة، كأني لا شيء.

في النهاية أراه يعبر إلى الشاطئ الآخر مسرعاً كما جاء.

سيبقى هذا للأبد.. لن تمتد يدّ تهزني فأصحو وأكتشف أن كل ما مررت به كان محض حلم بائس أو كابوس كما في الأفلام الميلودرامية ذات الحبكة المثيرة للشفقة.

سيبقى هذا للأبد.. لن يصبح موجوداً مرة أخرى ذلك الرجل الذي لم أعرف الوجد واللوعة والقنوط إلا معه. لن أقضي الوقت في استنفاذ فكري لتدبير الخطط مرة لاستفزازه وإغاظته ومرة للفوز بقلبه.

تم انفصالنا ولن يعود بإمكاني الحلم باستعادة الليالي الحلوة التي قضيناها أول زواجنا، ولا النضال لإنقاذ زواج تم تدشين نهايته بورقة رسمية، لن يعود بإمكاني محو إخفاق سيبقى جاثماً بحياتي مثل ختم فوق أوراقي الشخصية.. بغيض وأبدي.

t.me/qurssan

تسـقط في النسيان تفاصيل كثيرة وتتغول أمام عينيّ تفاصيل أخرى. عندما أسأل أمي عن قفص العصافير الذي كان لي، تقول أني تعبانة وأن الصدمة أرهقت عقلي، وعندما أحدثها عن منتصر تروعني دهشتها، أقول لها الولد جارنا الذي هرب من أبيه، تؤكد لـي أن اسـمه لـم يكن كذلك وأني أسمي الناس كما يروق لي.. "سـتخافين صـورة جـدك يأكل قطنه وأبيك تأكله كتبه، وأنت.. سـتأكلين أحلامك أم ستلتهمك ذكرياتك وأنت تلاحقين البنت التي تأتـي لـتحلم فـي نومـك مشعثة الشعر، مهلهلة الثياب، شاردة ومجذوبة نحو البحر البعيد الذي لا يراه سواها!".

تتركنـي أمـي وتغلـق عليّ الباب لأن لا أحد يحمل عبء العـذاب سوى صاحبه، حتى أمي انشغلت بولديها وتركتني، كما تركتنـي مـن قبل، كانت لحظة فارقة بحياة التوأم حين أحب كل مـنهما الفتاة نفسها "الأخت رشا" التي ظنتهما شخصاً واحداً متقلب المـزاج، يضـحك لها مرة ويتجهم حين يراها في المرة التالية، كانـت الصـدمة قاسـية على أمي حين فكر كل منهما في طلبها للزواج، وربما كنوع من الثورة على تشابههما، الذي طالما أصرا علـى تأكيده بارتداء ثياب متشابهة، قبل أن يغدو مزعجاً في تلك اللحظـة، فصار أحدهما يفرق شعره يميناً بينما انفرق شعر الآخر تلقائـياً لجهة اليسار، لذا تحولت الثروة المأمولة من بيع البيت إلى مصـدر صـراع علني، يطمح أحدهما لاستثمارها بمعاونة خالي الشـجيع، بيـنما يـرفض الآخر تلك الفكرة عنداً في أخيه، منتقياً لنفسه خططاً أخرى.

t.me/qurssan

نسيا أن البيت مازال لأبي الذي مازال حياً يرزق، ونسيا أيضاً وجودي أنا وأمي في خريطة العائلة، وسينسيان أشياء أخرى كثيرة عدا أني صرت مطلقة، فقدت حريتها بنفس اللحظة التي نالتها فيها! سيبديان دهشتهما إذا ضحكت مرة أو تابعت أحد الأفلام ولم يمر على فجيعتي سوى فترة قليلة، وسيقلبان نظراتهما في الساعة إذا فكرت في الخروج لقضاء أحد الأغراض، أمي أيضاً ستذكرني مع كل إطلالة شمس أني فعلت هذا بنفسي، وأن المطلقة هي امرأة تحت الميكروسكوب. سيجعلونني أحزن أكثر وأكثر لفقدي زواجي، الزواج الذي منحني حرية ما، حتى لو كانت حرية الوحدة والعراء والشعور بالتخلي عني فهي أرحم بكثير من هذا النسق، من هذه الشبكة المتداخلة الخانقة من علاقات التسلط المتخفية وراء قناع الحب. القيود التي ألقت بي قبل عامين بين يدي أكرم، الرجل الأكثر تحرراً بين من عرفتهم، لن أقبل بأبشع منها لمجرد أني صرت مطلقة. لا، لن يستمر هذا، فالحياة لن تضن علينا بالمفاجآت..

لكن يكن وهماً أيضاً حين سمعت عويلاً أدركت أن مصدره حنجرة أمي.

في سيارة أجرة يخيم حولها الضباب تنحرف فجأة لتتفادى مطباً غائراً فتصدمها شاحنة، ويلتوي الصلب اللعين ليصدم رأس أبي.. رأسه الذي أعرف ملمسه ورائحته منذ كنت أسند رأسي عليه لأنام وأنا صغيرة، أرى ألمه، دمه، صراخه فأصرخ.. كيف

t.me/qurssan

يمكـــن لذلـــك الألم أن يحتمل؟ سألوم نفسي مئات المرات لأني لم أركض خلفه لأمنعه من النزول في تلك الليلة.

حـــدق طويـــلاً بقسيمة الطلاق ثم ضمني صامتاً إلى صدره المشروخ بتنهيدة طويلة وبعد قليل ارتدى ثيابه وخرج.

تقول أمي: مكتوب، كله مكتوب عند الله في كتاب محفوظ.

ويتحدث الناس عن الطريق الضيق المظلم، الذي صار وجها يوميـــاً للمـــوت المجانـــي. وستكتب إحدى الدراسات الميدانية أن ضحايا حوادث الطرق صاروا أكثر من ضحايا الحروب.

هكـــذا قـــرر طريق الموت أن ينهي حياة السائق وثلاثة من الركاب ويترك إصابات بالغة بالباقين.

صرخت بوجه أمي: كفاية كذب بقى. من أوله إلى آخره كان ملفوفـــاً بالقطن، صار أبي قطنة كبيرة بها نقطتان سوداوتان، يأتي الطبيـــب كل فترة بكشاف له حجم وشكل قلم صغير ليفحصهما ثم يمصمص شفتيه دون أن يقول شيئاً.

تـــودع الضـــيوف الذيـــن جاءوا بعلب الشوكولاتة، ثم ذهبوا تاركين رنين أدعيتهم للراقد بين الحياة والموت الذي ستغلق الباب عليـــه وهـــي تحمـــل أكـــواب الشاي الفارغة لتسلمها إلى بوفيه المستشـــفى ثـــم تعود أمي لتجتمع بجمليها في البيت للتشاور فيما ســـتؤول إلـــيه الأمور. صوتهم الخافت هو ما سينبهني إلى أنهم يحدثون خالي الشجيع بالتليفون لأوقات طويلة، ستبدو أيضاً مقلقة، قبل أن تقل تدريجياً حتى تتلاشى بعد أن صاح بهم عمي الصغير:

– حرام عليكم. فيه مراكز متخصصة في القاهرة.

t.me/qurssan

تذكـــرت أمي أن كل شيء مكتوب، لكن لا شيء نعرفه من هـــذا المكتوب، باعت إحدى أساورها ونقلت أبي للعلاج بالقاهرة، وســـط توقعـــات ســـلبية للأطـــباء بشأن حالته، وتكهنات من قبل أصـــحاب الخـــبرة مـــن الجيران والأصدقاء عن ضرورة معجزة سماوية ليصحو هذا الذي احتل الموت نظرة عينيه.

لكـــن أبـــي عـــاد وخيب ظنون الجميع، عاد بكسور متفرقة أعجزته عن الحركة بشكل أخبرونا أنه سيكون مؤقتاً.

طـــبق الجـــريدة بعد أن أمضى ساعة في تقليب صفحاتها، ثم حدق بالحائط وسألها:

- فيـــن الســـاعة الخشب؟ ترددت بين الدهشة والرهبة وهي تجيبه: كل حاجة موجودة.

لـــم يكن ذلك كل شيء، ألقى غاضباً بالقفل الثقيل الذي اعتاد أن يغلق به البوابة الحديدية ثم التفت نحوها:

- فين حجة البيت؟

الـــرجة العنـــيفة ضبطت إيقاع وظائف دماغه، وبقى النزيف الذي أظهرته صور الأشعة قابعاً في مكانه لا يؤثر على شيء مما حولـــه. الندبة الوحيدة المؤثرة كانت في روحه التي ظلت مأخوذة بالحادث، بالموت الذي اختطف حياة صديقين له من أفضل رجال ميت لوزة التي عادت لتظلل حياته من جديد.

جائحـــة أبـــي أنســـتني نفســـي طوال أسبوعيّ الخطر اللذين شـــعرت بهمـــا أطول كثيراً من حقيقتهما قبل أن تعود الأصوات والصور لتقتحمني وتهزني مرة أخرى.

t.me/qurssan

مشـــيت كثيراً في السابق.. كلما غضبت كنت أمشي، ينفرط غضـــبي قلـــيلاً بقلـــيل مثل عنقود يُسقط حباته الناضجة أكثر من الـــلازم حـــتى يتخفف من ثقله فأعود. هذه المرة سيحملني حزني وألمـــي وغضبي والمهدئات التي أخذت سطوتها تسري في دمي إلـــى مســـافات هائلـــة وأنا راقدة بفراشي، عاجزٌ جسمي عن أن يحملنـــي.. سأجد نفسي هناك، أنفض الكتب مرة أخرى، لعلي أجد خـــيطاً.. ورقـــة مطوية، صورة أو أي شيء يجسم ملامح علتي، ســـأرى نفســـي أبحـــث عن شيء منسي بالكتب التي بالكاد أتذكر عناوينها.. كتب رحلات، كتيبات دعاية، كتاب عن أغرب العادات الشرقية وآخر عن.. الشريك المناسب والآخر.. غير المناسب.

ســـأراه فـــي تلك اللحظة ينهض من الفراش عارياً ومتوتراً يبحث عن منفضة سجائره في الظلام.

* * *

t.me/qurssan

منفضة سجائره هي التي هزمتك..

مـــنذ الليلة الأولى وأنت تائهة فوق الفراش الحريري الناعم، بيـــن ساقيك بضع نقاط قانية، وبين ضلوعك شعور غامض يتسلل إلى الطبقات الأبعد غوراً في روحك.

لحظـــة كنت تخافينها عبرت سريعاً مخلفة ألماً خفيفاً وومضة مـــن السعادة، سعادة الاكتشاف وما يعنيه أن تكوني امرأة لرجلك، الـــرجل الـــذي قضيت عمرك تنتظرينه، متأخرة في قطار الزواج عـــن زميلاتك لتجدي الرجل الذي تحققين معه وله السعادة.. كل السعادة.

الومضـــة كانـــت النهاية في طريق أوقفتك عقبات مبهمة عن المضـــي فيه، وكنت تقاومين وتحاولين التقدم، خطوة بخطوة.. لا شيء يولد مكتملاً.. حتى الحب!

تفتشـــين فـــي خـــبرات صديقاتك عن إجابات شافية لأرقك، تتوهميـــن أنـــك تقتربي ببطء من غايتك، تهيئين حواسك للتفتح.. عـــندما يقـــترب لن تجزعي، عندما تحسين نداوة شفتيه في شفتيك تســـتلمين للخدر الهادئ بأوصالك، كي تواصلي الرحلة فيك وفيه. لكنك عند لحظة معينة تدركين أن رحلتك بلا نهاية، لأن جبلاً من الـــثلج سيأتي ليشرد روحك. تتنبهين لوجودك التائه والسلبي. أكان ولـــيد هـــذه اللحظـــة أم هو قرينك الذي راح يتأسس داخلك منذ ســـنوات بعـــيدة. وقـــبل أن تتذكري وجهاً جريئاً سترينه يتوارى مسرعاً: أيهما حقيقتك؟ أيهما أنت؟

تقاومين هواجسك: كوني امرأة، كوني نفسك.

t.me/qurssan

تعاوديـــن إيقـــاعك حتى لا يبتئس شريكك، لكن اللحظة التي أفلتت منك تجعله يستكمل رحلته بارتياب ثم ينهض مسرعاً ليبحث عن سجائره في الظلام.

نقطـــة الضـــوء المتأرجحة بين فمه ومنفضة السجائر كانت تســـتدرجك فـــي رحلة ذهاب وإياب عبر ممرات روحك المتذبذبة بين التحقق والزوال، ملقية بك في دوامات الحيرة.

وحـــده الحـــب هو الذي سيجعلك تتوهمين أنه منقذك، وحدها الـــدلالات.. البيـــت.. الحنان، ستظنين أنها تملأ فراغات روحك، وتجعلـــك تتحققين، ستعايشين خداعك لنفسك وله بروح طيبة، لكن نظرتك ستنفذ داخل فراغات تتسع داخله.

تســـتمرئين الحـــيرة وأنـــت تراقبين انطفاء بسمته وانزواءه عنك.. ماذا حدث؟

شيء عصي على التجلي، علةٌ مبهمة تشعرك أنك مهما بذلت لا تحسنين العطاء. وأنك لست الشريك المناسب.

كان من الممكن أن تستمر الحياة بينكما لو أن كلاً منكما شعر أنـــه يحقـــق للآخـــر السعادة، وكم كان ذلك بعيد المنال. ذلك ما صـــرت تكتشفينه في الفراش الذي صار خاوياً بعده، وفي الشقاء الذي راح يضطهدك كل لحظة في غيابه، وفي الليل ستأتي البنت لتقحمك في حلمها.. وتستدرجك لتحكي لك عن يومها البعيد..

"لا يمكننـــي أن أجـــزم أنه كان اليوم الأسوأ في حياتي، لكنه بالتأكيد كان أسوأ من اليوم الذي عرفت فيه أن أمي لم تكن الأولى علـــى فصلها كما كانت تزعم كي تحثني على المذاكرة، كان أسوأ

t.me/qurssan

أيضاً من اليوم الذي اكتشفت فيه أن العروسة التي اشتراها لي أبي في عيد ميلادي كانت من أكثر اللعب شيوعاً وأقلها سعراً في ذلك الوقت. فقط كان يوماً سيئاً جداً لأني تعرضت فيه لألم وإهانة وخيانة لم أعرفهم من قبل"...

انحنت أمها مقتربة منها ثم ألقت في أذنها ببضع كلمات، أومأت الصغيرة بالطاعة دون أدنى ارتياب بكلمات الأم "تلك هي الثقة"، سأراها بعد ذلك تتجه للحمام وتغلق عليها بابه وحين تعود سيكون أبوها بانتظارها، يتقدم منها دون أن يبتسم ويرفع فستانها، "يتضح في تلك اللحظة أن جسمها تحت الفستان كان عارياً.. كما أمرتها أمها". يثني أبوها ركبتيها ويحملها مثل ضفدعة مقيدة بين يديه حتى يلقي بها فوق سرير بالغرفة المجاورة، سيفاجئها وجود رجل غريب.. يقترب منها، ملامحها تشي بالخجل من وجودها أمامه على تلك الحال، لن تشي بالخوف لأنها فيما يبدو لم تر ذلك الشيء الحاد الذي كان يخفيه بين أصابعه، ستغيم الرؤية لبضع دقائق حتى نراهم يعيدونها إلى فراشها مشبعة بالدموع. تشيح بوجهها بعيداً عن أمها التي راحت تطبطب عليها ثم تركتها وأغلقت عليها الباب لتنام. عيونها الممتلئة بالألم والخزي لن تنام.

"كيف فعلوا بي ما فعلوا؟ هذا عيب هذا ظلم لم يفلح طاجن الحمام بالفريك الذي قدمته لي أمي أن ينسيني إياه، الإحساس بالألم والظلم تجاوزته بالتأكيد، لكن الشعور بالإهانة سيرافقني لفترة طويلة.

لماذا كنت أسعى وراء الحب؟

t.me/qurssan

هــل كنت أفتش فيه عن معنى لوجودي كما يفعل كل إنسان؟ ربمــا أيضــاً أكثر مما يفعل كل الناس، كل المكتملين. يشعر كل شــخص بعــدم الاكــتمال، شعور ينتفي تماماً عندما يلتحم بآخر، عــندما يلتقي بحبه، أما عدم اكتمالي فكان يبرز لي أكثر، يستوي علــى أرجــل كثــيرة ويقــف أمامي متحدياً، خاصة حين أحاول إقصاءه، حين ألتقي بحبي.

جــبل الثلج الذي كان يثير دهشتي أكثر مما يخيفني يخيل إليّ أني أعرفه، أعرفه جيداً منذ اليوم الذي قطعوا فيه جزءً حياً مني، اليوم الذي وسموا فيه روحي بعلة فريدة. ينتصب أمامي فجأة كلما اقتربــت من الحب، كبيراً كالوصايا التي أدخلوها في رأسي عن البنــت المهذبة.. بنت الناس الحقيقية لا تلبس كذا، لا تقول كذا أو كــذا، لا تفعل كذا أو كذا أو كذا، بارداً برودة الأفكار التي راحت تكــبر داخلــي رغماً عني مثل نبات طفيلي غريب يقرض ذاتي، ويلتهمني دون أن أشعر، تسخرني لها حتى لو لم أثق بها أبداً.

جــبل الــثلج.. هل كان هو الذي يتوارى وراء ذلك الشعور الخفي والمخفي والمتخفي تماماً بعدم الاكتمال؟

* * *

t.me/qurssan

كل شيء هنا يشي باللهو...

ثمـــة ضحكات وصيحات تتلاطم، وأضواء فجة تصدم العيون والقلوب.. زحام صاخب، يأتي الناس من كل مكان ليلتقون الخطر المـــتربص فـــي الألعاب، في بيت الرعب، القطار الأفعواني، أو مديـــنة الأشباح، لابد أن تعرف الذعر، أن تجحظ عيناك وتتوقف أنفاســـك وربمـــا تنطلق صرخاتك عندما ترى الموت قاب قوسين مـــنك كي تفرح بالنجاة، بنعم الحياة التي تنسينا إياها مشاغل تلك الحياة.. فتخرج الضحكات منفجرة. "ذلك هو بروتوكول اللهو".

وهـــذا الرجل الذي يتبعني منذ برهة راغباً في اللهو لن يشي لـــه شكلي بحقيقتي، فهذه الصفات الخارجية لامرأة متدفقة الأنوثة لـــن تجعلـــه يتوقع أني امرأة مكتوب عليها ألا تتحقق أبداً كامرأة مكتملة، يتدفق ثديها بلبن الأمهات ويعجز رحمها عن أن يحتضن ولـــيداً. لمـــاذا إذن لا أفتح الباب للتسلية؟ لماذا لا أوهم هذا الذي يتبعنـــي أنـــي أسير على درب هواه وملهاته؟ لماذا لا أدع حواء المغوية تتقمصني ولو لدقائق قليلة، ولو على سبيل اللهو.

عـــندما صـــارت روحـــي سجينة لفكرة بائسة كنت آخذة في التلاشـــي، أقول للعدم: أنا العدم. كان حكماً لم أصدره ضد نفسي لكـــنه كان حكماً، وفي ذلك الطريق كان من الممكن أن أقع على رجـــل كهـــذا الـــذي يتبعني منذ برهة وآخرين مثله ينتظرون أن يجدوا امرأة تترنح ليدشنوا انهيارها الكامل.

لا أظـــن مَـــن وســـموا روحي بتلك العلة الفريدة توقعوا تلك اللحظة أو ذلك الشعور، وبالتأكيد ما كانوا يتمنونه لي أيضاً.

t.me/qurssan

ستعود البنت لتجذبك مجدداً ليومها البعيد، تصرخين: لا أريد.

إن مـــا أصابوه في تلك اللحظة لم يكن فقط جزءً من جسمي، بـــل الـــثقة المطلقة التي تمنحها تلقائياً واستثنائياً كل طفل لأبويه، أضـــاعوا الشـــعور المطلق بالأمان في كنفهم. فعلوا ذلك بصورة ليســـت أقـــل ضـــراوة من الحرب التي ألقت بك في ظلمة شاحنة تـــتدحرج في أحد أخاديد الأرض، ما أن تستغرقي في النوم حتى يوقظك ميلها ووشك سقوطها يميناً أو يساراً ووشك الموت أيضاً.

إن مـــن فعلوا بي ذلك ليسوا أبويّ وحدهما، فوراءهما إرث بغيض.

فـــي ذلـــك الـــيوم ضـــاعت الثقة التي لن يستر غيابها كلمة "مـــبروك" ولا العـــناق الحـــار الذي منحتك إياه أمك، الثقة التي ضـــاعت هـــي التي قوضت بذاتك أيضاً، فأتت خطواتك متذبذبة مهـــتزة، هي التي خلقت ذلك التوجس والحذر لديك من كل شيء، من كل العالم وحتى من نفسك.

عـــندما تتوغليـــن ي طيات كتمانك الغائرة، وتحاولين قراءة ذاتـــك، ستعرفين أن العلة لم تكن فقط في جزء مبتور، بل في آلية البـــتر ذاتهـــا التي مارسوها على أنفسهم قبل أن يمارسوها عليك ويجعلـــوك تمارسينها على نفسك أيضاً، تلك الآلية ستتسلل لتختبئ داخلـــك، تـــبقى مستترة ساكنة لفترة طويلة ثم تبرز فجأة لتختطف إرادتك وسعادتك.. انتقاماً منك أم منهم؟

ســـترين بنتاً تقدم أوراقها في دراسة لا ترغبها، يأمرونها أن تقطع صلتها بالولد الذي كان كل شيء لها فتذعن، يرهبونها أثناء

t.me/qurssan

فرز الأصوات الانتخابية فتهرب وتهرب.. من كل من أحبوها أو كان من الممكن أن يحبونها، وكان من الممكن أن تحبهم أيضاً.

من فتى انتظرك في الصقيع بوردة حب بين أصابعه النحيلة، ومن آخر كان جميلاً كصبية ورقيقاً كملاك في الوقت الذي حشوا فيه رأسك بالصوت والصورة عن ملامح خشنة، متوحشة للرجولة فتضعين بينك وبينه عهداً للأخوة لن ينكشف زيفه إلا بعد اختفاء من أحببته قبل أن تدركي ما الحب.

تمنيت أن أحب نادر، ولا أظنني عرفت بحياتي من شعرت نحوه بمثل هذا التمني، ومع ذلك خجلت أو خفت البوح له بما داخلي، ولولا جرأة أكرم التي استدرجتني نحوه لما تزوجته.

تتوغلين فترين محامية تخشى مهنتها وعاشقة للفن تخشى البوح بعشقها، ومثقفة طليقة اللسان مبتورة الذراعين، لأن قوائم لا نهاية لها من العيب والحرام، ومخاوف من الشجب والإقصاء والتنكيل سترد خطواتك.

سترين أن كل عنادك ومؤامراتك للتحايل على قيودهم بقيت تدور في المحيط الضيق والبائس لرأسك والقليل منها هو ما صار من لحم ودم. عنادك لم يكن جدائل ذهب تتسلقينها نحو خلاصك بل قشرة زائفة تخفي تخبط وحيرة قد تدفعكِ لإيذاء ذاتك بدلاً من تحريرها.

ولا يعلم أخي الذي يهبط أمامي كصاعقة كل عدة أيام – يفتش البيت ويدور بالحجرات الخاوية ليبحث عن رجل أو أثر لرجل لأن امرأة بلا زوج هي مدانة حتى يثبت العكس – أن

t.me/qurssan

القــيود التي زرعوها داخلي لم تعد تردعني، لا يعرف أني فقدت الرغبة بكل شيء حتى اللهو، وحتى رؤية وجهه أيضاً.

يــريد أخـــي أن يلهو، أن يلعب دور الغضنفر حامي الحمى والقــيم، رغم مطالبة أبي له بأن يتركني في حالي، بل ربما لهذا الســبب بــالذات لا يترك فرصة إلا وينتهزها للتدخل في شئوني مشــحوناً بالرغبة في عصيان أبي وسيجعلونني كرة يقذفونها كما يشاءون. لا، لن يستمر هذا.

الحــرية التي كنت أفتقدها، التي لم أحصل عليها سوى بعنف المــوت، لم تكن سوى حرية الوحدة والخواء والعدم. أليس مدهشاً أن الحــرية التـــي عشت أنشدها وأحلم بها صارت وجهاً مطابقاً للوحــدة التـــي ظلت كل خطواتي، كل المغامرات وقصص الحب المزعومة التي كنت أزج بنفسي فيها محاولة لنفيها ولإقصائها؟

* * *

t.me/qurssan

– أنــت امرأة فقدت حبها أم فقدت نفسها؟ ابتسمت ابتسامة لا طعم لها ثم أردفت: أنت مغرمة بإدانة نفسك.

لــم تتوقع إنجي أنَ عبارتها المختزلة تلك هي التي ستجعلني أحمــل حقيبتي مع حزني وغضبي إلى جاردن سيتي، لأبدأ حربا مع المجهول في البيت الذي صار خاويا إلا من حجرة نومي التي دفــع ثمــنها أبــي وأشــياء أخرى قليلة بعد أن باع أكرم الأثاث وعــرض الــتحف "كل ثروته" بأحد المزادات العالمية كي يتمكن رجل هذا العصر أن ينفق بغير حساب كما اعتاد.

أهــذا التعلــيق القصــير هو كل ما تمنحني إياه المرأة التي اعتبرها صديقتي بعد كل ما حكيته لها؟

التفتــت تقلــب الأشــياء التي أحضرتها لها كما أرادتها، لم تســمعني ولم تضحك حين لخبرتها كيف خفف انتحاري المزعوم قبضة أمي ولخويّ عني.

اندهشت من تلك المرأة التي لم تكلف نفسها أن تشكرني لأني تحملت عناء زيارتها بالمستشفى حاملة معي كل ما طلبته، لماذا لم تقدر ذلك؟

قلت أواسي نفسي: ماذا أنتظر من المجانين.

أثناء زيارتي السابقة لها رحت أراقب الممرضة الشابة وهي تطهــر ثنــية ساعدها بالكحول استعداداً لشكها بالإبرة، تراجعت بظهرها إلى ظهر السرير باستسلام ثم قالت:

– أعترف بأني إنسانة محظوظة رغم كل شيء.

t.me/qurssan

كـــادت المفارقة بين سن الإبرة المتحفز للوثوب نحوها وبين كلماتهـــا المـــتفائلة تضحكني لولا أنها كانت تحدق بعينيّ بوجوم شـــرس قبل أن تلتفت للممرضة ترجوها أن تمهلها، أن تمهلنا معاً بضع دقائق، فأذعنت الممرضة بعد تردد قصير وتركتنا.

إنجـــي كانت تخشى أن تذهب تلك المرة ولا تعود. أرادت أن تـــنفرد بـــي لتترك لي حكايتها "وصيتها" ولا عجب أن تتفتح لها ذاكرتي مثل كراس فارغ لتكتب ما تريد.

"ظـــن الناس أمي من الخواجات. ليس لأنها شقراء، بل لأنها كانـــت مختلفة، لم يكن لها رأسان ولم يظهر لها ذيل، فقط حررها اختلاطها بالشعوب المختلفة من كثير من الأوهام، وساعدها على اختـــيار العقل والضمير كمرجعية لسلوكها الذي كان يستفز جدتي لأبي، فبقيت حتى موتها تردد دون أن تعبأ بوجودي تعليقات قاسية عن أمي: عملته خاتم في إصبعها.

أبـــي لم يكن لعبة بيد أي أحد، كان يرى أن الدنيا أرحب مما نظن، ويقول:

– نـــأخذ الطيب من هنا، والطيب من هناك. بلح الشام وعنب اليمن.

أما التقاليد التي تستمد قداستها فقط من كونها متوارثة فلم يكن يعـــبأ بها. منذ كنت طفلة اعتاد أن يعاملني كإنسانة ناضجة قوية، يحـــترم رأيـــي ورغباتـــي ويدعم إرادتي. أحبه أبناء البلدة، كانوا يخلصون له الدعاء، للشفاء الذي يجعله الله على يديه، ولعمله في العيادة التي لم يرفع سعر الكشف بها منذ شيدها حتى مات. لكنهم

t.me/qurssan

كـــانوا يذكرون سلوكه الذي يبدو لهم غريباً بقدر من السخرية في مجالسهم المغلقة، كانوا يعرفون كيف يشطرون أنفسهم في التعامل معه لأنه مجتهد ونافع لهم، أما أنا فكان نصيبي في الشطر القاسي وحده.

بعد أن فقدت أمي وأبي في حادث مباغت كاد وجودي بكامله أن يختل لولا أن وجدت الرجل الذي صار حبي وزوجي والشريك المكمـــل لوجودي الذي عجزت عن أن أعوضه بأي شريك آخر، بـــل رجـــل آخر. شاهدت عذابك بل لا أغالي حين أقول لكِ أني عشته، لكن دعيني أصارحك بأن أهم ما بالفراش هو الحب، الحب وحـــده هـــو الـــذي يداوي أية علقة مادية، أما علة الروح التي لا مـــداواة لهـــا فهـــي غـــياب الحب. كنت أرى عذابك وأخجل أن أصـــارحك بأنـــي تعذبت مثلك، أنا التي تعتبرينني امرأة مكتملة، تألمت كثيراً لأني أخفقت في أن أمنح ذاتي لرجال لم أحبهم.

كان ذلك هو خطئي، الزواج بدون حب هو خطأ بشع، وقعت فـــيه كي أنفي الوحدة التي طاردتني طويلاً، فلم أجن سوى المزيد من العزلة والآلام."

لـــم تكترث لجعلها موضوعاً علنياً للفضول من قبل جيرانها، الشيء الوحيد الذي لم تحسب حسابه هو أن يتأثر أبناؤها بالأعيرة الطائشة التي أطلقت حولها.

وراحت تحكي عن رجال يدعون حبها ويريدونها شريكة في الفـــراش متعلقين بدفئها وحنانها ثم يرفضون الشراكة الحقيقة في الحـــياة. قلـــيلون مـــن تهـــبهم الحياة شريكاً مناسباً، وقليلون من

t.me/qurssan

يرفضون خداع أنفسهم مثل هذه المرأة التي صارحتني بما عجزت أمي عن الخوض فيه معي أو لأجلي. *لأنهم* مهما تعبوا لا يكفون عن المساعدة وعن إنارة الطريق للآتين بعدهم، *لأنهم* لا يرغبون أن يكونوا زعماء، ويرفضون بنفس الوقت أن يتبعوا أحداً، سيبقون دائماً نجومي الأليفة".

عندما عادت الممرضة بالإبرة، كنت أخشى أنا أيضاً أن تذهب إنجي ولا تعود، تمنيت أن أحملها وأركض إلى خارج هذا المكان الذي لا يستحق أن تبقى فيه، تمنيت أن أفعل أي شيء لأجلها، ولم أهدأ إلا بعد سماع صوتها بسماعة الهاتف في اليوم التالي.

ستة أشهر من العلاج بالمهدئات والجلسات الكهربية داوتها من نوبات الذعر التي تسلطت عليها من جراء اتهامات أولادها القاسية لها، خالقة داخلها ذعراً أكبر من كل مظاهر الجنون، وبدلاً من أن يحتضنها أولادها ويعيدونها لبيتها وحياتها فضلوا بقاءها بعيداً عنهم.. "تحت الرعاية الطبية الكاملة".

أنا أيضاً ظلمتها لأنها لم تكثرت لحزني الطازج، ونسيت ما فعلته لأجلي، أ ليست هي التي تذكرتني وأهدتني موسيقى الدانوب الأزرق التي أحبها في البرنامج الإذاعي؟ أ ليست هي التي صارحتني بالكثير من الأشياء التي كان يجب أن أعرفها، وكيف أنسى أنها هي التي عرفتني بصديقها الصحافيّ العجوز الذي صار صديقي رغم أنه أخبرني بالكثير مما لم أكن أعرف؟ رغم أنه

t.me/qurssan

كشـــف لـــي الطريقة التي حقق بها خالي ثراءه حين أخبرني أنه يرشو كل شيء حتى ضميره، حتى الماء والهواء الذي يتنفسه.

نســـيت أنها أهدتني صديقاً لا مثيل له، ونسيت لبعض الوقت كـــل مـــا فعلـــته لأجلي لكن عبارتها المبتورة: أنتِ مغرمة بإدانة ذاتك. سيبقى رنينها يدوي داخلي لفترة طويلة، وسواء كان بسبب الحب أم الكره فقد أدركت بعد وقت قصير أني تعمدت أن أستبعده من كل مسئولية لفشلنا.

وتحكـــي جارتـــي العجوز عن مواليد برج العقرب المتقلبين الأهوائيـــن الذيـــن يبتسمون دائماً ونادراً ما يظهرون ما بداخلهم. وتجعلني أنسى أنه ليس وحده من مواليد العقرب، بل أنا أيضاً.

وتقـــول لـــي زوجة صديقه أني كنت القصة الأطول بحياته "مجـــرد قصة"، وأنه في الغالب كان يحبني. "ألم يرجوك أكثر من مرة أن تراجعي نفسك؟ ألم يأخذ أشياءه ويترك لك البيت؟ لأنه بيتاً تحبيـــنه، بيـــتاً ستهربين إليه، وتبدئين فيه حياة جديدة، حتى لو لم يحدث ذلك سوى في غيابه.. هذا الرجل لم يكرهك فهل أحبك؟".

رحـــت أقلـــب في أشيائه.. الأشياء التي تبقت منه.. طوفان الأشـــياء التـــي كـــان يشتريها بشغف ثم يملها ويهملها بعد وقت قصير...

تفتحين الصندوق وتخرجين صور الزفاف: كم كان جميلاً في الصور.. يتكلم ويضحك متماهياً مع الفرح، هو الفرح، هو الفرح. أما أنتِ فكانت نظراتك شاردة..

t.me/qurssan

الصـــور لا تكذب، ستقول أنكِ في كل لقطة كنتِ تبحثين عنه مـــتلهفة علـــيه، أما هو فكانِ يتحرك وسط الآخرين، صورة هنا وأخـــرى هـــناك، مســـتغرقاً في فرحه الشخصي مكتملاً بدونك، ســـتقول لـــكِ الصور أنكِ أنتِ التي لم تريه من قبل، أنتِ التي لم تكتشـــفي أنه منذ البداية لم يكنْ لكِ، وأنكِ كنتِ ضحية وهم نسجته يداكِ.

الحـــركة المحـــدودة لعقـــارب الساعة بين اندفاعه نحوك ثم انطلاقـــه باحـــثاً عـــن سجائره في الظلام ستجعلكِ ترينه مسكوناً بالغرائـــب، بالرغبة في النصر والفوز ، الظفر بالسعادة هو ما كان يهمـــه لا الســـعادة نفسها، متعة الفوز لا متعة الحب، يبدو أني لم أكـــن بالنسبة له أكثر من زجاجة عطر تلهف لاقتنائها ثم ملها بعد فترة وجيزة.

ولكن لا.. ربما أحاول تشويهه لتبرئة نفسي، وربما كان ذلك صحيحاً جزئياً، لكن من المؤكد أنه كان يبحث عن شيء لم أستطع أن أمنحه إياه.

تتذكريـــن نظرته المتوغلة في وجهك، لا يجد سوى ابتسامة مســـتعارة وبـــاردة، جل ما تقوله أن كل شيء على ما يرام، لكنه ليس ساذجاً لينخدع بها.

تريد الصور والأصوات أن تتوارى الآن وتدعي أنك منهكة، مشوشة.

يسألك عما في رأسك حين يشعر بك بعيدة عنه: فيم تفكرين؟

تجيبينه: ولا حاجة.

t.me/qurssan

– هذا الذي كان له عالماً بعيداً عنك لم يكن لكِ بكليته، وأنت أيضاً لم تكوني له. لم تخبريه شيئاً عن ذاتك، عن عام الهجرة، والعفاريت التي كانت تضطهدك في ظلمته، عن البحر الذي حرمت منه، والسماء التي ضمت نجوماً تألفك وتألفينها عندما تركك من كنت تألفينهم وسافروا دونك، لم تخبريه عن خجلك منه ومن نفسك في علاقتك به في أحيان كثيرة، أقمت حول ذاتك حدوداً مقيتة غير مسموح بتجاوزها.

– أبداً، هو الذي لم يسألني، لم يرغب أن يعرفني. عبارته المفضلة هي: مآسي العالم ليست من اختصاصي.

– ربما لم يكن ذلك حباً، لم يكن حباً.

بين طرفيّ الحكاية تروحين وتجيئين من إدانته إلى إدانة نفسك، من كراهيته إلى كراهيتها، في طواف مقدس حول مركز ألمك بلا هدف سوى الخلاص من تلك الحيرة اللعينة... ولا خلاص.

t.me/qurssan

ماذا كنت تريد مني أيها البحر؟

أخفت الصغيرة التي اعتادت أن تزورك في نومك وجهها وركضت نحو الماء. و"أنتِ ستلاحقينها لأن صوتاً داخلك حدثك بأنك ستقرئين في ملامحها شفرة شكوكك".

كانت تسقط في نومي مكشوفة الوجه دقيقة الملامح، هل كانت تستدرجني حين اخفت وجهها وتركت ضفائرها المحلولة تجذبني نحو البحر؟

لهفتي تسبق خطواتي، وخطواتي تسلبني عقلي، ألقي بنفسي بين أمواج صاخبة موتورة تبتلعني، إلى أن أضيع في الماء، ولا أتعرف وجه الموت حين يقترب مني، ما أقرب الموت مني، ما أبعد الموت عني في تلك اللحظة!

كنت أتمايل بدلال فوق أرجوحتي الضائعة.

كنت في حضن جدتي، تقرب النشوق من أنفها فنعطس ونضحك معاً. كنت أقذف السماء بحصى منتصر فتصبح كل حصوة نجمة تألفني.

كنت أرى أكرم يمرق سالماً وسط الموج، كبيراً وجميلاً وعارياً إلا من الزبد يغطي شعره، عارياً كما رأيته أول مرة، جميلاً كما عرفته في أول قبلة، وأول عناق يصهرنا معاً، وأول اكتشاف لطعم شفتيه ورائحته نومه، ناديته بكل روحي، ومددت يدي نحوه ليأخذني، في وجهه رأيت كل ما راح مني، كل ما فقدته دون أن أدرك قيمته، دون أن أعرف لماذا أفقده أيضاً.. ما زال ذلك يؤلمني.

t.me/qurssan

اقــترب دافعــاً بــيده نحوي، وقبل أن تتلامس يدانا تراجع، تراجع كثيراً، صار يصغر ويبتعد وأنا أصرخ باسمه، أناديه حتى بعد أن فتحت عيناي وأدركت أني نجوت من موت وشيك ووجدت نفس بين وجوه طيبة التفت حولي لتتأكد من سلامتي كنت لا أزال أهتف باسمه.. لكنها ستكون المرة الأخيرة.

تحــررت مــنه ومــن نفسي في تلك اللحظة التي ستعاودني مــرات ومــرات، لأن الماء الذي اندفع خلال أنفي وفمي مازال داخلــي، مازلــت أشــعر به يتوغل في تكويناتي الخلوية الدقيقة، ويمحــو كل الأشياء، يتخلل ثنيات ونتوءات دماغي ماضياً ليذيب ذاكرة استعصت على ترويضي لها، مسترسلاً في محو عدو لدود اسمه الندم.

احتفيــت بالموت الذي خلصني من عاهات بدت لي مستديمة، مستسلمة للتحليق في الفضاءات الأكثر بعداً التي ستجعلني أتخفف من زماني ومكاني ومن ذاتي أيضاً.

عــبرت جسر المخاوف عندما رأيت الموت والحياة موجتين بنفس البحر.

نعم.. كان لابد أن ألقاه، أن أتزوجه، وأن أفقده أيضاً، لم يعد يهمني من كان المصيب ومن أخطأ.. عندما فقدت كل شيء تحرر من الخوف، وبدلاً من الحزن على ما راح غمرتني سعادة نادرة، وبدأت أتحسس خلاصي.

هــذه الحمــى التي تصيبني في الليل راحت تدفع بسائل لزج ثقــيل مــن مسام جلدي. كثافته الغريبة كانت ترج كياني وتشظي

t.me/qurssan

رأسي المثقل مثل بركان، عرفت أنه رسم لوجودي خارطة جديدة عندما بدأت أشعر بالكراهية تغادرني، وبالغضب الذي غصت فيه طويلاً يتلاشى؟

وبـدا لـي أن أفكاري الحادة التي كانت تضعني في موضع الإدانـة، ثـم تنقلـب بعـد لحظات لتضعه بنفس الموضع، تلك المـبالغات، ذلـك التطرف، تلك الكراهية كانت لوناً من العنف لا يلتهم سوى صاحبه.

وإذا فكـرت الآن فيمن أشعر بالامتنان له فستكون روح ذلك الفقـير البسـيط، الفسيح مثل الفجر، الذي وقف ذات يوم فوق كل التباينات وقال:

- حيث يكون الحب، يكون الرب.

وهذه السلحفاة التي تركتها جارتي المسنة لأرعاها في غيابها تدهشني صدفتها الصلبة المقسمة لوحدات هندسية مثيرة، أقرأ في تضاريسها العجيبة عمارة: كن ودوداً.

صـدفتها الصلبة هي التي جعلتني أظنها جماداً ثم أتفاجأ حين أحـس لأطـرافها لـيونة أطراف طفل ولد لتوه.. ورأى عيونها مفتوحة.

سـكونها الطويـل يوحـي بأنهـا ليست حية، لكنها كل عدة سـاعات سـتبرز رأسها وتتجه نحو ورقة النبات الخضراء التي تـبقى أمامهـا أياماً كما هي تقريباً. أغفو وأصحو وهي لا تزال راقـدة بجـواري، تربكني بصمتها وسكونها كلما تذكرت التخبط والتوتر اللذين عانيتهما طويلاً.

t.me/qurssan

فــوق جسم هذا الكناري تنمو أكثر من ألفي ريشة، يتم تبدلها وفقاً لنظام محدد يضمن توازناً على جسم الطائر بين ما يسقط وما ينــتج مــن ريش جديد. أحب انثناءة عنقه التي تمكنه من ملامسة جمــيع أجــزاء جســمه بمنقاره الذي يمكنه هو الآخر من تسوية الريش وتهذيبه وتلميعه، وأحب حراشيف ساقانه أيضاً.وفي درب التــبانة حيث يبدأ الانصهار النووي في المجرة الحلزونية تتطلق ملايين الأنجم.. وفي نفس السماء يقعي بيت التقاعد لملايين أخرى من النجوم.

ســتعاودني كثــيراً تلك اللحظة.. الموت والحياة موجتان في الــبحر ذاته. شهيق عميق وزفير بطيء.. واسترخاء يجعل العقل يفــرغ من شواغله ويتخفف من الشعور بتفرده منغمساً في وحدة الوجــود. عندما أدركت أني جزء من كل.. قطرة في بحر الكون الهــائل، لــم أعد أري نفسي المضطرمة سوى موجة عابرة فوق مجرى الحياة الدافق، ولم تعد اللوعات ولا الخيبات التي منيت بها تحزنني كما من قبل.

البــنايات الشــاهقة وناطحــات السحاب صرت أراها أصغر بكثير مما كانت عليه أثناء حياتي السابقة.

لــم أعــد أكره البنت التي تخشى اجتراح البحر لأني لم أعد أخشى الحياة، فقد صرت أحمل الكون داخلي.

* * *

t.me/qurssan

قــوض أبي أحلامهم في بيع البيت الذي صار غير مقيم فيه تقريباً بعد أن تصالح مع عمي، وبعد الحادث الذي سجل له ميلاداً جديداً، طارحاً "ميت لوزة" إلى ناصية اهتماماته الفعلية.

ومن هناك كان يتصل بي كل عدة أيام ليطمئن عليّ ويسألني عن القضية.. سألته مندهشة:

- عايز ترفع قضية على مين؟

يلومني أبي كمحامية غير بارعة، مع أني لم ألُمه لأنه لم يكن الأب الذي احتجته، بل بقيت أختصه بحب واحترام لا حدود لهما.

نســي غضبه من المسئولين عن الطرق، ونسي الحادث نفسه بعــد أن عــايش مشكلات "ميت لوزة" الحقيقية لأسبوعين كاملين، عــاد بعدهمــا يحملق في بيته الخاوي، التقط أنفاسه قبل أن يطلب من أمي التي صارت وحيدة بعد انطلاق أخويّ، أن يبيع جزءً من ذهبها ليشيد دوراً قرب الترعة يكون ملتقى للناس لبحث أمورهم، ثم اختفى بعد رفض أمي التي بكت عقب رحيله.

ومن دوامة المكتبة إلى دوامة الحياة أتأكد كل يوم من أن أبي ســيبقى مــأخوذاً دائماً بأمور هامة، ولكن في الجانب البعيد عن أمي، غير مدرك لآلامها، ذلك ما يؤلمني أنا الأخرى منه، أما ما اخــتص بــه بالفعل فهو أفكاره المدهشة التي لن تكف عن الذي اختفى ولن يكون الوحيد الذي سيعود...

هل ساعدت إنجي على الهرب دون أن أقصد؟

لــم تصــارحني بخططها، لكني سأتذكر أني تركت نظارتي الشمســية الداكنة لديها بعد أن أعطيتها الشعر المستعار والملابس

t.me/qurssan

التـــي طلبـــتها فـــي علبة مغلقة تزينها شرائط ملونة، متبعة بدقة التعلـــيمات التـــي أعطتنـــي إياهـــا بخصـــوص الهدية المزعومة ومتغاضية بنفس الوقت عن ذلك الحزم وتلك الحيطة.

ادخـــرتْ حـــبات دوائها لأسبوع كامل قبل أن تضعها بفنجان شـــاي كبيرة الممرضات وهي تحادثها بملامحها المتخفية كزائرة لإحـــدى النزيلات ثم تودعها بابتسامة ستكبر مع خطواتها الواسعة فـــي بـــراح الشـــارع ومع تخيلها لما ستعانيه المرأة التي جعلتها وغـــيرها مـــن النزيلات يعانين طويلاً: الآن ستجرب وتعرف ما فعلته بنا.

تضحك إنجي وهي تحدث نفسها متجهة نحو سيارة أقلتها إلى بيـــتها الذي ستدخله بهدوء خفي. تأخذ أوراقاً تخصها بعد أن تقسم أن ترد الصفعة على وجه العالم وتثبت له أن عقلها يزن بلداً.

بعدة حركات بهلوانية ودماغ صلب استردت حريتها غير أن ظهرها الذي أثقلته الهموم أنحني.

لمـــاذا حملت النظارة معي في ذلك اليوم إلا لأني كنت أخمن ما ستفعله.

تواطـــأت مـــع إنجي لكني لم أتواطأ مع فرح. فرح أيضاً لم تتواطأ مع نفسها.

ربمـــا حملتْ أن تعيش حياة أخرى.. أكثر أماناً، أكثر رغداً، أن تصـــحو من النوم فتجد نفسها امرأة أخرى لكنها لم تهرب بل طُردت.

رمى عليها اليمين ثم فتح الباب وألقى بها إلى الخارج.

t.me/qurssan

وجـــدت نفسها تمشي، تبتعد، مشلولة الفكر، خالية اليدين في طـــريق لا تعـــرف إلـــى أين سيأخذها؟ فجأة تجد الصغار حولها يـــتعلقون بها ويرفضون تركها، تزجرهم فيتشبثون بها أكثر. تجد نفســـها معهـــم فـــي قطار، ومن القطار إلى بيت إحدى قريباتها، ســـتخفي عـــنها الحقيقة وقبل أن تفكر فيمَ ستفعل بالأولاد، تداهم الشـــرطة البيـــت الذي لحسن حظها كانت خارجه تشتري طعاماً للصـــغار فـــي تلـــك الساعة التي ألقت بها مرة أخرى على نفس الطريق بلا عون. بلا حيلة.

"حاولـــت أن أخلـــق عالمـــاً بديلاً من الفرح، أن أتعالى على الصـــراع بالمحبة، بمحبتي لعالم كلما حاولت الاندماج فيه لفظني، حاولـــت أن أهـــرب من صورة أمي المذمومة، أمي التي لم تعد موجودة لتدافع عن نفسها وتقول حقيقتها. تنازلت عن كل حلم كي أكـــون مقبولة بين الناس، أساعد بيد، وأتجنب السخافات بيد أخرى دون صـــد خارج، وأهرب من اللحظات التي قد تؤدي إلى تصعيد إي توتـــر. لـــم يكن ذلك دهاء ولا نفاقاً. كان "المشي جنب الحيط" هـــو الســـبيل الوحيد للعيش في عالم شحيح الرحمة ألقى بي تحت قدميّ عجوز أناني قاسى القلب حتى على أبنائه، أبنائي، ومع ذلك لم أكرهه أبداً".

لأنهـــم مـــنذورون للمحبة ومترفعون عن الكراهية سيبقون بسمائي الصغيرة نجوماً أليفة".

البنت التي لا تكف عن الضحك لم تكن تتقن الكلام، لكنها لم تتمكـــن مـــن حجـــب أفكارها عني. فرح التي راحت تقسم بملء

t.me/qurssan

صـــوتها أمـــام ممثلي القانون أن الصغار هم بالفعل أبناؤها بيقين أدهشـــني في موقف ظننت المحامي الذي اخترته لها نصحها به، ولـــم يكن ذلك صحيحاً. فرح وهي تقسم أن الصغار هم أبناؤها لم تكـــن تكـــذب ولا تحـــاول أن تخدع أحداً، ولا لجأت إلى صيغة مجازيـــة تبرر بها فعلتها، ولا استجابت لإحدى ألاعيب المحامين. فـــرح التي حرمت من كل شيء كانت تعني بالفعل أنهم أبناؤها، وربمـــا عانت في تلك اللحظة آلام الحمل، ومخاض الولادة، ربما اســـتعادت لحظـــات مـــن سعادة لم تعشها قذفت بتلك النطف في أحشـــائها وجعلـــتها أمـــاً لا تتنازل عن صغارها إلا بالموت وفقاً لتفسير الطبيب لحالتها.

* * *

t.me/qurssan

هل يمكننا أن ألوم الفن لأنه يهز الأرض من تحت قدمي كل يوم؟

بعـــيون أخـــرى يجعلنا نرى الخبيء، المستتر والغائر، وحده الفن يجعلنا نغفل عن إجرام السيد "كورليوني" لأن تمسكه بالشرف ســـيهزنا، إنه بالفعل الأب الروحي الذي يوجه أبناءه ويحميهم من شـــرور العـــالم، وسنقدره لأنه يقدم منظوراً متماسكاً للعدالة حتى وإن اخـــتلف كثيراً مع المنظور السائد لها. وقد نتعاطف معه حين نكتشـــف أن تحولـــه إلـــى مجـــرم يـــتم عبر سلسلة من الحلقات المتصـــاعدة تجعلـــنا نـــدرك أن المصير الذي انتهى إليه لم يكن باختياره، وإنما هي "علة مستقطرة".. ما أن تبدأ حتى تمضي إلى نهاية منطقية وحتمية من خلال مسار لا يعرف الرحمة.

أنـــا قانونية.. شغوفة بالعدالة، لكني في مأزق.. لو أردت أن أكون مخلصة وخالصة للقانون فإن عليّ أن أقدم اعترافي حتى لو وجدت نفسي في قفص الاتهام.

اعـــترف بالسرقة، بعت خاتمي الذهبي وادعيت ضياعه حين سألتني أمي عنه. لن أنكر اشتراكي في نشاطات طلابية محظورة ولـــن أنكر تهمة التهرب من الجمارك، ولا إيواء شخص مطلوب للعدالة.

خالفت القانون مرات عديدة، لو حوكمت عليها لربما قضيت باقي عمري خلف القضبان، ومع ذلك فليس هنا يوجد الصدع، بل فـــي أنـــي "أنـــا المؤمنة تماماً بالقانون" لم أشعر في أي من تلك المـــرات بوخز الضمير، كنت راضية عن نفسي تماماً حين بعت

t.me/qurssan

خاتمـــي لأوفـــر لمنتصر المال الذي طلبه مني قبيل رحيله، وكان الـــتهرب مـــن الجمارك شأن خالي الشجيع لا شأني، كما أنه من المؤســـف أن التعبـــير السلمي عن الرأي أعتبر جريمة حتى في أروقـــة الجامعـــات. كـــان لابد أن أساعد إنجي على الهرب لأن احتجازها القسري في ذلك المكان ما أراه جريمة حقيقية، أما فرح فكيف كان سينتهي بها الأمر لو منعي خوفي وحرجي الحقيقي جداً من مساعدتها، وهي البريئة بالفعل؟

ولكـــن مـــاذا كانت تفعل تلك البنت في نومي من جديد؟ أتت معصـــوبة العينيـــن، تحاول بفرد ذراعيها إلى جانبيها، وباستقامة خطواتهـــا المشـــدودة والمؤلمة ألا تميل إلى أيّ من الجهتين. إنها تمشـــي طويـــلاً، تبحث ولا تجد، تقارب ولا تصل. لكنها لا تكف عن التوغل.

لـــن أســـتطيع الدفاع عن خالي الذي لا يرى، بل لا يريد أن يـــرى أن النتـــيجة ليست هي وحدها الشيء المهم، فالطريق إليها مهم كذلك. خالي لم يتهم أبداً ولو حدث أن وُجه إليه الاتهام بسبب التواء طارئ في تكتيكات اللعبة فسيعرف كيف يخرج مثل الشعرة مـــن العجيـــن. أمـــا فرح فهل كان من قبيل السخرية أن الطريق لإظهار براءتها كان من الممكن ألا يكون بريئاً؟

ويأتـــي فـــلاح بســـيط من حقل الملح يصيح يشكو أحد كبار الموظفين، مطالباً باجتثاث الفساد:

– هل يخطئ الميزان؟ إن إقامة العدل هي نفس الأنف.

t.me/qurssan

ويؤخـــذ الملك بفصاحته النادرة التي تصور المبادئ المعنوية بمواقـــف ملموسة "قبل أن يأتي ذلك في أقوال عيسى عليه السلام بأكـــثر مـــن ألفيّ عام"، فيأمر بتأجيل البت في شكواه ليكون ذلك مصـــدر خطـــب بلـــيغة ســـتجمع في ملف البردي لتبقى كأفضل نصـــوص الأدب المصـــري القديم وتبقى شاهداً نزيهاً على بزوغ فجر الضمير الإنساني لدى أجدادنا قبل سواهم.

تطـــل سلحفاتي برأسها الطري للحظة كأنها تراني وتتأكد من وجـــودي، ثـــم تنســـحب بنفس الهدوء الذي أحسدها عليه لأني لم أتمكـــن من مشاركتها فيه طويلاً بعد أن جرفتني الحياة لضجيجها مـــرة أخـــرى. تذهـــب وتتركني لانفجاري، أحاول أن أفهم لماذا وكـــيف وصـــل ابـــن السيد كورليوني ضابط البحرية الذي حظى بميدالـــيات ونياشـــين في البطولة الوطنية للجلوس على نفس مقعد أبيه في زعامة الخارجين على القانون؟

كنـــت أتخـــيل أني حين ألقاه سأظل أصفعه على وجهه حتى تتورم يداي ويهدأ قلبي، ولكن حين التقت عيناي بعينيه كانت كثافة عشـــر سنوات كاملة اللوعات والخيبات قف ما بيني وبينه. عشر سنوات ذهبت بالبنت التي كان يعرفها، وبالولد الذي كنت أعرفه. فمـــاذا تـــريد منـــي الآن؟ ولماذا تأتي بك فرح إليّ؟ ولماذا توجع دماغي؟ دعني أحزر من يحدثني الآن؟ لا هو الولد الذي كان يملأ كفه بالماء لأشرب، ولا هو الفتى الذي رحل وخلف وعده لي فوق ورقـــة بيضاء بالعودة. ولا هو الشاب الذي ظل يهرب من لقائي مســـتبقياً عنوانـــي معه دون أن يسعى للقائي. عاد منتصر بعد أن

t.me/qurssan

كـــدت أعـــتقد أنـــه لم يكن سوى حلم اخترعه ذهني تلبية لإحدى حاجاته، لكنه الآن شخص آخر، رجل لا أعرفه ولا أرغب في أن أعـــرفه، وعلـــى أيـــة حال فهو يستحق أن أسمعه، لأجل الشهور والســـنين التـــي عشتها في انتظاره، لأجل اللحظات الحاسمة التي كان يبرز فيها أمامي واقفاً بيني وبين عيش حياتي بشكل طبيعي، لأجل كل ذلك سأترك لك هذه الصفحة من ذاكرتي لا من حياتي.

"الولد الذي كنتِ تقولين أنه يفكر بيديه، كان يحاول أن يصبح بناءً من نوع خاص، أن يصوغ لغة بالتخاطب مع حبات الحصى والحجـــارة ليبني جسوراً بين مفردات الكون اللانهائية وبين البشر الذيـــن اعتادوا التعاطي معها في خضم انشغالاتهم اليومية بمنطق الـــنفع الأحـــادي لا المعـــرفة التي تحقق التماهي الكامل، لكنه لم يمنحني الفرصة لذلك.

لا أكـــره أبـــي. لا أمتلك الجرأة لذلك، لكني كلما تذكرت أن مســـار حياتـــي، مستقبلي كله انهار بيده أشعر برغبة حقيقية في نســـيان هـــذا الـــرجل الذي ربما لا يكون صحيحاً ولا عادلاً أن أتجـــاهل مـــا كان يفعله لأجلي كل يوم بل ساعة، ولن أكف عن الإحساس بيده قابضة على يدي بعد أن يتركني عند باب المدرسة، وتاركـــة علاماتهـــا فـــي معصم الطفل الذي سيجلس ويلعب مع زملائه محاولاً أن يكون واحداً منهم قبل أن يأتي أبوه ليعيده للبيت بنفس القبضة التي ستذكره كل لحظة أنه ليس كزملائه، وأن عليه أن يبكي لأجل أن يلعب في الشارع، يكذب كي يذهب إلى السينما. كـــان خائفـــاً علـــيّ من كل شيء، الشارع، الناس، بل العالم كله،

t.me/qurssan

الحمايـــة المفرطة صارت قيداً، والخوف صار سجناً، وأبي صار ســـجاناً بل جلاداً لا يكف عن لومي وتأنيبي على كل شيء حتى محبتـــي والتصـــاقي بأمي، بالحنان الأمومي الذي هو من دفعني بتعنته وغضبه الدائم للانصهار فيه.

باب الغرفة المغلق عليّ كان الشيء الوحيد الذي يعيد السلام لأبـــي الـــذي أردني مستقلاً حتى عن أمي وأخواتي في حين كان ينـــتزع بـــيده القاســـية، بالضجيج الذي يحدثه صفق الباب بقوة، بالقدرة الاستثنائية على التجهم، استقلالي نفسه، كابحاً قدرتي على التعبير عن ذاتي ورغباتي.

كنـــت أريـــد أباً، قوة تمنح القوة للآخرين بدلاً من أن تقوض قواهم الناشئة.

مـــع الحصوات الصغيرة وحبات الزلط والحجارة كنت ألتقي ذاتي وأتعرف موهبتي، أصنع مركباً لأبحر، وهرماً أصعد به نحو الســـماء متحدياً الموت الذي سأسعى إليه بنفسي قبل أن تتلقفني أيد لها حنان أمي، وملامح فيها طيبتها.

إنني آسف لسعيي للموت كمهرب أخير من حصاره لي. كنت أتمنـــي أن أغـــادرهم بســـلام، أن يتقبلوا استقلالي عنهم دون أن أهـــرب، أن أكون قادراً على العودة لحنان البيت ودفئه كل فترة، لكـــنه لـــم يترك لي خياراً، وبدلاً من الحوار فرض عليّ القطيعة والهرب.

t.me/qurssan

كنــت أتمنــي أن أودع أمي، أتركها في سلام دون أن تخاف عليّ لأنها تعرف أنها صارت داخلي، تعرف أني قادر على الحياة بها مهما كنت بعيداً عنها.

كنــت أتمنــي ألا أتركك أنت أيضاً بهذا الشكل، بهذا الجرح الــذي أبقــى عبارة"أحبك" التي لم أقلها لك في حلقي تعجزني عن التفوه بأية عبارة حب لامرأة أخرى لفترة طويلة. في كل القصص التــي كنت تروينها لي عن فتيان تتخيلين أنك تحبينهم كنت أتمنى أن أصــير مكــانهم، لكنــي أذهب لأبعد منك متماهياً في قصص متخيلة خاصة بي، ومستكفياً بالدوران حولك في لقاءاتك الغرامية الطفولــية لأطمئن عليك دون أن أشعرك بوجودي ودون أن أكف عــن انتظار يوم نتصارح فيه بحبنا. كان كل شيء ضد أن يحب أحدنا الآخر، تعنت أبي، الثقة المطلقة التي منحتها لنا جدتك فصار خذلانهــا جريمة في مناخ فكري يؤثم الحب، ثم الوجود المباغت لأبيك الذي ثار على وجودي في غيابه، وأتت الشائعات القذرة لتتم ذلك.

- كن رجلاً.

كان تصوره عن الرجولة يتضخم فلا يدعه يصغي لتصورات أخــري. رجــلاً أي خشــناً فظــاً مترفعاً عن الصفات الجوهرية للإنسان.

عــندما صفعني لأني أردت اختيار حياتي بنفسي لم يكن أبي يقصــد ضــربي، كان راغباً في محو ملامح بدت له مختلفة. ولم يكــن يعلم أن ما سينسجون حولي من شائعات كان من الممكن أن

t.me/qurssan

تمـــوت فـــي مهدهـــا لو ساندني في اختيار طريقي كما أرغب، ودعمني في تأسيس استقلالي الذي جعلني أرفض السلطة المفرطة والخضـــوع القســـري للأوامر والنواهي حتى لو تغلف ذلك باسم الوطنـــية. أعـــرف أن هناك من يحتملون ذلك بل ويحبونه أيضاً، وأنـــا احترمهم واحترم موقفهم بنفس القوة التي احترم بها موقفي وأتمسك به. إن ما لم يفهمه أبي هو أن الناس يختلفون كثيراً دون أن يرفض بعضهم البعض. ذلك كل شيء.

عـــندما اضـــطرمت النار من حولي، بصراخ أبي في البيت وتهكـــم الأولاد عليّ في الشارع بألسنة جارحة كالصقور، قررت الهـــرب مـــن كل شيء حتى من أمي التي أحبها، حتى منك، أنت التـــي كـــان حلمي أن أبقى بجوارها، أبقى أيّ شيء لها، صديقاً، أخـــاً، أي شيء عدا أن أتركها، حتى من مستقبلي الذي ضاع دون اســـتكمال دراستي.. ذلك كان أبسط الخسائر، فرنين أصواتهم ظل يقتحمني بنوبات من التهاوي المفاجئ وفقدان الثقة بالذات جعلتني أبـــتعد عن كل النساء خشية ألا أكون رجلاً حقيقياً في العلاقة بأية امـــرأة، حـــتى بعد أن أحببت وتزوجت بمن أحببتها بقيت لشهور أخشـــى أن أقترب منها لولا الحب الذي أعاد صياغتي بهذا الشكل الذي أحدثك به الآن.

نعـــم كنـــت أخشى لقاءك، أشعر بالخجل مما قالوه عني، من وعـــدي لـــكِ الذي لم أجرؤ على الوفاء به، أنتِ التي فعلتِ الكثير لأجلي.

t.me/qurssan

رغـم كـل شـيء لا زلـت ممتناً لهذه الحياة التي مع كل مراراتها تبقى جميلة. لا زلت ممتناً لك، لكل ما كنته لي، ولكل ما فعلـته لأجلـي. لا زلـت ممتـناً لنادر الذي لولا صداقته ولولا أصدقاؤه النبلاء الذين استردوني من الموت وساندوني في استعادة ذاتـي لما بقيت حياً حتى هذه اللحظة التي أحدثك فيها رغم أني لم أكن محظوظاً بدراسة أكاديمية للفن، إلا أن ذلك جعلني أسعى بجد لأطور قدراتي، لازال كثيرون يعتبرونني دخيلاً، لكني أجد دائماً من يرحبون بي وبأسلوبي الخاص. مازلت أيضاً ممتناً لفرح التي أحبتـنا وفعلت الكثير لأجلنا، هذه الراقدة الآن بين الموت والحياة تعاني كما عانيت، لأنهم ظلموها واتهموها تماماً كما فعلوا بي".

"لأنهـم تشـاركوا طويـلاً موت طمأنينتهم و لأنهم من فرط مخاوفهم لم يعودوا يخافون شيئاً، لأنهم مهما يعانون يبقوا ممتنين لـنعمة الحـياة، التـي لا تفوقها أية نعمة أخرى. لأجل ذلك كله سيبقون في سمائي الصغيرة نجوماً أليفة".

عـندما توقف عن الكلام كنت أبكي، لا أعرف إن كنت أبكي لأجـل هذا الرجل الذي لم أعرف في حياتي من هو أكثر رجولة وإنسانية منه؟ أم من أجل نفسي التي فاتها محب استثنائي لا سبيل لاسـتعادته ولا لتعويضـه؟ وحب ربما لو وجدته في ذلك الوقت لتجنبت عذابات كثيرة.

عذابـات فـرح لـم تقـض عليها، فبعد أن استردت حريتها وتعافت صحتها رفضت أن تصبح موضوعاً دعائياً لقضايا المرأة كما أرادت أن تجعلها إحدى الصحف، فكبرياؤها النادر لم ينل منه

t.me/qurssan

كل ما حدث، لكنه لم يجعلها ترفض الوظيفة الصغيرة، التي قدمها لها منتصر في جمعية "الأسرة الجديدة" التي يديرها بالاشتراك مع زوجته، وصارت أماً لأطفال لا حصر لهم في دار الأيتام التي أنشأتها الجمعية قبل أعوام.

عاد منتصر.. منتصر الجديد لم أرفض صداقته، وبقيت رسائل نادر ولقاءاتنا بإنجي، وفرح تتربطنا جميعاً، وهو الذي شجعني على التقدم لوظيفة صحافية بمجال النقد الفني بفرع إحدى المجلات الأجنبية بمصر، تلك التي رشحها لي ورشحني لها نادر قبيل سفره، حاولت أن أشرح له أن لا داعي لمزيد من الجروح، لكنه رجاني مصراً عل ذهابي، ذهبت مرجحة الفشل قبل المقابلة وواثقة منه بعدها، لجملة من الأسباب منها لجلجتي في نطق الإنجليزية إذ اكتشفت أن الدروس التي سعيت لتلقيها استعداداً للسفر مع أكرم قبيل انفصالنا لم تنفعني كثيراً، ومنها أيضاً غرابة الأسئلة التي جعلت إجاباتي كلها متراوحة بين احتمالات عديدة، وقد أخبروني بعد التعاقد أن ذلك بالتحديد ما جعلهم يقبلونني للعمل معهم، ففكرة المجلة مبنية على تعدد الرؤى ورفض الأحادية الفكرية، رفض اليقينيات التي اعتدت أن أحسب عجزي عن الامتثال لها ضموراً بشخصيتي، لكن إنجي أخبرتني أن الغرب لا يتحرك كله بهذه الروح، فقط بعض الناس هناك وبعض الناس هنا هم مَن يمتلكون الرغبة والجرأة في طرق المسارات المختلفة والبحث عن دروب جديدة. لم أكن أعرف أن ذلك سيحدث لكنه حدث أن وجدت نفسي أعمل بوظيفة بسيطة لن تجعلني أغير وجه

t.me/qurssan

العـــالم بثلاثة أصابع تمسك بالقلم لكني قبلتها، وبذلت جهداً ضخماً كـــي أثبت كفاءتي، بالأخص أمام نفسي، فلا شيء سهل أبداً، ولا شـــيء أيضاً يضيع، فدراستي الأكاديمية للقانون، ودراستي الحرة للسينيما "كنت أراهما عديمتا الجدوى ومضيعة للوقت" تعاونتا معاً فـــي صـــقل خبراتـــي وتأهيلي لمهنتي الجديدة التي يوماً بعد يوم صـــرت أحـــبها، وأظن أني أقوم فيها بشيء ذي قيمة لذا لم أضن علـــيها بشـــيء. وهي أيضاً لم تضن عليّ، فالاحترام لذاتي الذي أشـــعر بـــه الآن لم أعرفه في أية فترة سابقة، لو أردت أن أركب دراجـــة ســـأفعل، لم أعد أعبأ بالعيون التي تدمن التطلع من خلف الستائر.

مـــنذ قليل رأيتها في البحر من جديد.. وهي لطول ما سكنها الخـــوف لم تعد تخافه، ولم تعد تخشى الموجات التي تغوص بها نحـــو صـــخور تفصـــد دماء قدميها الصغيرتين، بل إنها تقسم إذا اقتربـــت منها سمكة القرش، أو حاول السرطان العنكبوتي لمسها، أنهـــا ســـتكون لقمـــة مؤلمـــة لا وجبة شهية، أما لسعات القناديل الصـــغيرة فلم تعد تؤثر فيها. ودعتني قبل أن تختفي، لكني تركت الباب بيني وبينها مفتوحاً كي تعود متى شاءت.

توقفت عن البحث عن الشريك الذي يلائمني، دون أن أتوقف عن عشق هذه الحياة.

* * *

t.me/qurssan

على الأرجح لم يعد هناك مبرر للخوف، فلحسن حظ "ثيسيوس" وقعت ابنة مينوس في حبه، فأعطته سيفاً تخلص به من المارد، وكرة من الخيط استرشد بها في منحنيات التيه ومنعطفاته.

اختفت المردة من هذا العالم، لكن أشياء صغيرة لا يعدو حجمها حجم ديدان صغيرة وربما تكون أيضاً غير مرئية، بإمكانها أن تلتهم سعادتنا وحياتنا إذا تركنا لها أمرنا. ولن أختلف مع كثيرين يقولون أن الخيط ينبع من القلب، لكني أزعم أننا نتسلمه عملياً في الحياة بفضل أناس آخرين، نعرفهم جيداً أو نقابلهم لبضع لحظات، أو نسمع عنهم إحدى الحكايات، أو نقرأ عنهم في كتاب، إننا نتسلم الرسالة في الغالب دون أن نشعر. ففي سماء كل منا نجوم يألفها وأصدقاء يحلم معهم.

الحياة تيه لا حدود له، لكن أسوأ ما نفعله بهذا الصدد هو أن نخشاها، بعضنا يجد الخيط ويتبعه، وربما لا يوصله الخيط إلى شيء محدد، فلا توجد لافتة ثابتة للنهاية السعيدة سوى في الأفلام السينيمائية. إنه فقط يرشدنا إلى أننا لم نبتعد كثيراً عن الطريق الذي يلائمنا، ولا يلائم بالوقت نفسه كثيرين غيرنا.

كان من حسن حظ أخويّ أن قرر أبي أن يسلبهما حلماً لم يكن لهما، دافعاً بهما للبحث عن طريقيهما، ولا أظنهما سيضلان طويلاً.

التغيير ليس سهلاً. إنه لا يتحقق بجيوش جرارة ولا بخطب جياشة، إنه يتحقق حين نقلب عيوننا نحو دواخلنا لنرى.. من نحن؟ أين نقف؟ وماذا نريد؟ وبهذا المعنى أشعر أني تغيرت.

t.me/qurssan

مـــررت بـــتجربة قاسية، لكني حين أحاول أن أراها جيداً اكتشف أني تزوجت ممن رغبت الزواج به، وأنهيت الزواج حين شعرت بضـــرورة ذلـــك، واخـــترت أيضـــاً أن استكمل حياتي بعيداً عن أسرتي، ولو قال لي أحد قبل عشر سنوات أني سأفعل كل ذلك لما صـــدقته. نعـــم تزوجت وأخفقت وعرفت ألواناً داكنة من المعاناة جعلتـــي أتـــروى كثـــيراً في اختياراتي التالية، تقدمت وتأخرت، وتعطلـــت خطواتـــي مرات عديدة في التواءات الطرق الغامضة، ونعـــت ذاكرتـــي بـــنعوت قاسية دون أن أعلم من منا التي كانت تحـــاكم الأخـــرى! لكنـــي علـــى ثقة من أني لم أعد ناقمة عليها، فالذاكـــرة هي الأخرى خيط من الممكن أن يصل بالبعض إلى جلد ذواتهـــم دون هـــوادة، مســـتنزفين في الحلم بماضٍ أفضل، ومن الممكـــن أن يقود البعض نحو فهم أفضل لأنفسهم، فبفضل ذاكرتي وحدهـــا اكتشـــفت أنـــي لم أكن أبداً تلك الفتاة التي تصورتها عن نفســـي، فالأفكار المقيتة والمخاوف التي زرعوها داخلي، وبقيت أميـــنة علـــيها لسنوات طويلة، كانت تقرض ذاتي شيئاً فشيئاً، كما كانت تقوض قدرتي على الإقدام ومواجهة الحياة، ولولاها لاتخذت حياتي مساراً مختلفاً.. أكثر بساطة وأقل عنفاً. الوحدة المبكرة هي أيضـــاً تحكمـــت كثيراً في خطواتي وحاولت أن تصوغ مصيري، كانـــت تدفعني للسعي المحموم نحو الحب، نحو أي شيء أتصوره حـــباً، لكـــنها اندفاعـــات حادة، خاطفة مثل اندفاعة الفراشة نحو الـــنور.. لسعة واحدة تكفي لارتدادها أبعد مما كانت، لسعة واحدة

t.me/qurssan

قد تعني نظرة أو كلمة أو لقاء عابر أو زواج عامين اكتشف بعده أنه لم يكن أي شيء.

كانت خشية الفقد هي سبب نكوصي المؤلم بعد كل اقتراب من الحب، فقدت أشياء وأشخاص كانوا من الأهمية لي بحيث ترسخت داخلي بعدهم تلك الخشية من أن أمنح ذاتي لحب قد أفقده بعد وقت قصير فتتجدد معاناتي. وعندما استرحت لفكرة العش كإنسان عمومي لا كامرأة بعد أن توقفت تماماً عن البحث عن الحب، اكتشفت أنها كانت لوناً آخر من العنف حل محل عنف اندفاعاتي السابقة.

ولكن يبقي في القصة أن الحب وحده هو الذي أبقى ثيسيوس حياً، الحب صار الخيط الذي أنقذه من التيه، كما حدث معي عندما رأيتكَ وتعرفت فيكَ على نفسي، على الحب الذي صار مبرراً حقيقياً لوجودي الذي لم أشعر بقيمته إلا بعد أن عرفت معك السعادة الحقيقية، سعادة منح السعادة، التي تجعل من الشريك شريكاً بالفعل، ومعك وحدك اكتشفت أن أقسى ما عانيت هو علة نفسي التي شوهتها أفكار ومخاوف لا معنى لها، ما زال من الممكن أن تهدد سعادتي لو تركت لها الفرصة، مؤكدة لي أننا – معشر البشر – بحاجة إلى عمل في كل اللحظات، يعاد البدء فيه دون توقف كي ننأى بالواحة الدافئة للحب بعيداً عن جبل الثلج.

تمت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مكتبة ٢٠٠٧

مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن، ومكتبة فى كل بيت. لأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر وإعلاء المثل العليا، وقيم العمل، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان. وتكوين ثقافة المجتمع يبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة. وستظل وسيلة المعرفة الخالدة هى الكتاب الذي يساهم فى إرساء دعائم التنمية وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

سوزان مبارك

القراءة للجميع
2007 - 2008

t.me/qurssan

١,٥٠ جنيه